الـنرد

النرد

تأليف

وفاء الشويعي

الطبعة الأولى

1438 هـ- 2017م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

2017/6/3138

وفاء الشويعي،

النرد / وفاء الشويعي.-عمان: دار زهران للنشر والتوزيع، 2017.

(   ) ص.ر.إ. : 2017/6/3138.

الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث/

- أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

المتخصصون في الكتاب الجامعي الأكاديمي العربي والأجنبي

دار زهران للنشر والتوزيع

تلفاكس : 5331289 – 6 – 962+، ص.ب 1170 عمان 11941 الأردن

E-mail : Zahran.publishers@gmail.com

www.darzahran.net

الشيء المؤكد الوحيد بأن لا شيء مؤكد في هذا العالم

بلينيوس الأكبر

مازلنا نشق حضن ذلك الخط المتهالك بذراعيه المكبلة بقضبان حديدية متمادية ومسرفة الوصال حيناً وقاطعة حينا آخر ، شعرت أنها لن تنتهي كان قبلها لوحات إرشادية تغتصب حيادها و موضوعيتها كتابات متمردة على الأدب العام و عدة لافتات صفراء تنبه عن مشاريع مبتورة إبتدأ فيها هذا المسكين الذي نسيه المسئول المشغول فعلّق شماغا رثّ على كتفه واشترى عرق عفن ليشاطر اصدقائه لعبة بلوت تنتهي عادة بلعان وسباب وشباك أيدي متطوحة أو بسنً أُخذ على حين غره بلا ذنب..

فتدحرج حتى انغرس في تلك السجادة الموءود عليها كل مالا أريد تصوره!

على اي حال تلك الفوضى لا يتذكرها أي منهم في الغد وكأنه طقس لابد منه كختام لعزيمة الأحزان ولقاء لإنكسارات مضغها الروتين وبحوله صيّرها عادة هامدة لا يحصل حراكها إلا بين حين و حين!!

ونبقى نحن الذين نتلظى عذابات الطريق المنكفئ على جراحه

هناك نخلات رشيقة أو نحيلة وهل يتساوى الجمال والضعف

لا يهم هي شامخه رغم الحالتين

ومعقوفه بإتجاه السماء تنظر نحو الله !!

حين ننوي عُمرة ننوي التطهر وكأننا مؤمنين بالدنس يغطينا..

من القصيم الى مكة ألف كيلو أريد حشوها بألف حبة للصداع وكأن من شروط العمرة عند والدي ذلك الشريط الذي لا يكل ولا يمل من الثرثرة..

يهدئني قليلا صوت تلاوة متقطعة بينهما مدى ليس بالقليل تنساب هادئة مُطمئنة تنتشلني من وسواس الموت لما بعد الموت وهذا كثير على روحي

هل سأكون في الجنة انا وليلى وسماحة ؟!

وهل ابالغ واتجرأ على الله لو تمنيت كارلا معنا..؟

ليست مسلمة ولكنها طاهرة ومخذولة وتحبنا اليس حب المسلمين و القرأن وسيط قد يمكنها من التمتع بصحبتنا وسماحة تستحق حياة بدل تالف ليس طمعا بلمساتها على شعري فهو فالجنة سيكون ناعما طويلا بلا فضل منها ودون تلاعبها بمحفظتي كسهم بورصة اخضر سرعان مايهوي محمراً للأسفل ولا يبرر لها ذلك إتقان ما تفعله بشعري الثائر المتصلب وكأنه كهل فقدت مفاصله ماء الحياة فتجعد وانكمش و أهترى وحين تضع هذه السماحة يديها الملبوسة عليه تعود إليه الحياة ..

وينتفخ بصلابة و فتنة كشاب رأى غانية بعد زهد وتعفف.

هذه البدائع .. أتى صوت والدي مزهوا وكأنه يريني اخر الدنيا التي لم ارها يوما...

نخل معقوف لفوق اصفّر لونه فعاد للسقوط يُقبّل الأرض فشارع هدته الشقوق وداهمته الالتواءات بدأ يتلون بالخضار بشجيرات قليلة مقُلّمة ومُسرّحة ملتفه حول دوار وشارعين او ثلاثة

لابد ان هذا الشارع المتوحد بأناقتة في كل محافظة مررنا بها متغطرساً على بقية إخوته المهملين كيف لا يكون كذلك وهو كالأبن الملونة عينيه والمهندم لباسه يتباهى به والديه امام ضيوفهم ويخبئون البقيه الرثة من اولادهم بالخلف حتى يغادر الضيوف ويكفيهم ذلك المتأنق فلن يحفل ضيوفهم ان كان هناك بقية بالأصل فهذا المتأنق يؤدي الغرض ويرضي ضيف العجالة ذاك

خفت صوت ابي وهو يذكر قصصا كثيرة وأختي تجاريه في الحديث لأن امي منتصبة جانبه قد تكون غاضبه منه او ملت حكاياته!

لا يهم فهما أخر شيء أتمنى أن أصبح مثله فرغم إختلافهما الا إنهما يلتقيان على بار يلف كؤوس انانيه من كل لون ورائحة..

والطعم المُرّ من نصيبي و هند!!

هند تشكي لهما دائما وكأنها لا تفعل!!

و هذه الرس و هذه و هذه ..ترجعني الإشارة إلى كل محافظة صغيرة إلى الشوارع الضئيلة والتمدن البطيء والناس البسيطة هل سنجتمع في الجنة هل سيأتي هذا النخل المخذول وندلله هناك ويسقيه الله ويكرمه كما لم نفعل نحن معه ؟!

ربي إجعل هذا البلد آمنا مخطوطة على لوحة مغروسة في قلب مرتفع ترابي..

ونظيفا أبيضا يارب إجعل بلدنا أبيضا نقيا يا حبيبي يارب أنت تعلم اننا تعبنا من كل شيء .. كل شيء

أنيقة الرس بطوبها الجديد أشم رائحته تحشو الجو وجوامعهم المرفوعة من قريب شامخة جميلة فاتنة وخط بيوت سكنية مرصوفة بذوق يقال أن فتياتها جميلات ولا أعلم لم ألتقي بواحدة منهن قبلاً

لا يهم

الاهم أن لا يعلم فهد فعينهُ لا تشبع ولو علم

سيتوسد شوارعهم لعل جميلة تمر !

هذا الخائن شهوته موسومة بين حاجبيه كهندوسية عُلّمت يوم زواجها بنقطة حمراء بين عينيها..

ثقب يعلمك أنها سيدة مست سلفاً ومملوكة حتى لو كان مليكها لم يبقى منه سوى حفنة رماد إحتفظت بها بعد إضرام النار فيه

لا يخلصها من هذا الثقب إلا نارٌ تصلى جسدها الفاتن فتمحى هي و وسم الخضوع ذاك

أما فهدي..

فثقبه ملكية شهوات إعترف لي يوماً بها .. وقال صريحاً أنا عبد هذا الشيء و أشار إلى رمز فحولته المالك لبقيته!!

ضحكت حينها .. و أعتبرتها ظرافة ووقاحة محببة .. لم أجزم أنه صادق وصريح وعنى ماقال إلا بعد حين..

لن يمحى هذا الوسم فيه ..سيظل موسوما بين عينية كفحل جمل يتباهى به أمام أصدقائه و أنا الناقة الهاربة من عثيه وقبحه!! ..

هل تشيخ النوق مع فحولتها الخونة ام مع صديقاتها وجمال عاقلة و رزينة قد يكون أحدها يحبها من بعيد لبعيد حب عذري يرى الكلأ قبلها فيتباطأ لعلها تسبقه اليه وتتغذى .. ويقترب منها ليلا لتطمئن به ويطمئن بحراستها!!

تململت على المقعد القاسي طاردة هذه الواردة !!

لست ناقة فلا سنام لي ولم أكن يوماً نباتية ولا حاجة لي بحبيب خجول يرعاني و يحرسني من بعيد .. أو كنت أعتقد!..

أريد ذلك الأسمر الذي أرقص روحي رقصتها البكر و إنسّل بين جفني وعيني ليالي طوال سامر صوته القوي بتهدج رقيق قلبي ,أصاب نقطة الهدف بقلب مكابر وعنيد لم أرى يوماً أنه سيقع ويفتك به من أحد..

اريد ذلك الفحل القبيح ولكن بشروطي وشروط الحب لا إنزلاقات الشهوة والحيوان داخله .. سيغدو معي رجلا كاملاً بطاقة كبيرة لي وحدي وبقلب ٍ مصعوق لولادة نبضة صغيرة

تتلوها نبضات تغني باسمي

فقلبه لا يعرف النبض..

واشك الآن أن له قلبا بالأصل فرجالنا جلف وكنت جلفة أو أحاول أن أكون ونجحت في وقت ماض أذكره..

وقت كنت به هشة بقوة، بصلابة المتظاهرين بالشجاعة بينما الخوف يزلزلهم ،كانت روحي ترتجف من الخواء والوحدة

واللا أحد.. أخاف التفكير وقتها بمن لي ومن يعنيني.. وبمن أنا له .. ومن أعني له ؟

حين أتمادى في الحاجة يقتطع ذلك التمادي بحثي الفطري عن شيء ثقيل وناعم أتدثر به!

تنمرت على صديقاتي بوصفهن من المغضوب عليهن ولسن سوى سائرات نحو الفخّ

فهكذا مجتمع لايعول عليه ولايحتمل هذه المشاعر ويكاد لايفقه بها شيئاً!!

استلئمت وكنت قوية جلفة إزاء فضفضة تأتي كل حين وحين من هذه و تلك .. وأكرر عليهن كلمات سئمن منها ويرجعنها لي بكلمات لم أعيها ذلك الوقت..

لو أحببت ياصبا ستفهمين وتراعين!!

أفهم ماذا وأراعي من ؟

انسلت يدي بلا تفكير إلى درج حقيبتي الصغير بحثا عن البنادول نايت

تلك الحبوب هبة صغيرة أنشد بها نوماً يأخذني ولو قليلا مني و .. منه

احضني يا الله انا متعبة وأنت فقط لك حق دموعي والسقوط امامك

عانقت الماء المنساب ترصدت لكل قطرة لئلا تخرج من الطريق المغادر لجسدي يمنة يسرى حتى ذينك المصطدمات بأطرافي وينوين التنزه بالهواء قليلا كنت لهم بالمرصاد تلويت بخصري ووقفت على أطراف اصابعي ورفعت يداي بالهواء لأحصل على حصاد كامل من هذه القطرات المندفعة نحو اللا شيء ها أنا الآن أرقص الباليه لكي لا تخونيني ايضاً!..

لن أكون غبية اخرى ترضى بتناثر روحها وضياع حقها !

ليت الحياة كحمامات السيل المثقوبة على إمتداد المساحة كلها

مثقوبة تأخذ كل ما يتساقط منا .. كل الآمنا وكل جروحنا وآثامنا تنسل من تلك الثقوب بلا أحكام أو وسم يلصق بك ما حييت

هذه الثقوب منزوعة الألسنة

وبلا ذاكرة تخزن سقطاتنا وعثراتنا

وما شهدت من دنس غسلته برفق من علينا..

وسحبته بعيداً .. بعيداً

أو هي اغتالته فككته قطرات الماء كأنه لم يكن قط

تسقيك حياة جديدة .. نقتّك وقالت هي لك تفضلها.. !

لبيك عُمرة

لبيك عُمرة .. لبيك اللهم لبيك

لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك

لبيك حاجة لبيك راحة

لبيك رجائي فلا تغضب مني يا حبيبي

لبيك قلباً ناح وروحا هجرت وايمانا ترنح!

كل بكاء العالم و جُل دموع الخوف والحب والرهبة والسعادة لو كان الهم يغطيك والغم يقاسمك معه..

ستستشعر سعادة رغم هذا!!

راحة رؤية الكعبة لن يضاهيها أي رؤية و أي راحة!

هل لأننا نعلم أننا شفافين قبالتك .. فالآخرين يحتاجون طناً من التعبير والتنسيق

لأحاديث طوال كي يعلموا ما بنا

بيتك يارب بيتي حتى وإن نهرني عامل التنظيف وأنا اناجيك

حين بلل الماء اصابع قدمي سمعت اصواتهم مجتمعه تجرني من حديثنا

يارب لم تكلم من البشر الا موسى أعلم ذلك

ولكن هو حديثنا يارب فكلماتي التي اخبرك فيها ما حصل

رغم أنك تعلم و أنت تسمع و أنا أعلم أنك تعلم

الم تقل يا كبير أدعوني أستجب لكم

تاهت دعوتي يارب مع أني أتيت متلهفة لأخبرك بها

فأضعتها في متاهات دموع اللقاء بك .. رحب يا الله وبيتك رحب فقلبي هدأ

بين الصفا والمروة شعر والدي أني مرهقة فأقترح علي أن أرتاح فلو كان قريبا وقت طوافي لعلم أن طن دموعي الذي أفرغته هناك قد أنهكني ولم أشعر بذلك حين فضت وفاضت أشياء كثر إزدحمت داخلي وكنت أحسبها دفنت هناك وأمام الكعبة نفخ فيها فقامت مهرولة تنشد مخرجا دهشت وتشنجت كل الحياة حولي فلم أشعر إلا بها وهي تدوس علي لتعبر من فوقي..

شعرت بالوجع .. وجع كنت نداً له أنظر بعينيه وأتقدمه فكان ظلاً لي وحين تنام الشمس أجده مندسا معي بالسرير يوقظني ليوسع مساحته فقد لاحظت أنه يكسب وزنا سريعا وكان هذا الأمر يؤرقني فقد صغرت مساحتي الخاصة على سريري حبيبي وصديقي فقررت أن أترك السرير له ولا أحاول أن أنام.. لما نحاول أخذ مالا يأتي إلينا وكأننا نناضل لثقيل ؟

حين إعتدته قلمت حياتي وفقاً لطقوسه بلا مقاومة و إفتعال أشياء لا أشتهيها ولا أشعرها .. إلا النوم فقد كنت أحتال عليه وأتناول حبوبا صوتها أعلى من صوت إيقاظه لي!

لكن أنا خفيفة الآن .. خفيفة جداً !!

فقد كنت مشتاقة لحديث أحباب وحصلت عليه.

من يعرف صبا يعرف أني لا أستطعم الفضفضة لإنسان قط حتى لو أعياه السؤال أن أتحدث كصديقة العمر ليلى .. تعبت ليلى محاولة أن تحثني على الحديث والشكوى وحين أيقنت أنه حتى لو كان حديثي عن فهد لن أتحدث فهو لم يغير طباعي فاقترحت علي هذه العمرة و كان إقتراح محب لم يسعه فعل شيء لك..

فوقع ورقة يائسة منك و وقع أيضاً

ورقة ثانية..

ورقة تحويل لآخر يعلم يقيناً أنه لن تعجزه حالتك ولا عنادك !

أخذني حديث هند المتذمر من الزحام إلى حيث نحن فقد كان المسعى مزدحماً على آخره

تتأفف هند متعبة حانقة قائلة أن الحرم لم يعد كما كان

وأن الأجانب يعومون من كثرتهم هناك !

شددت على يدها مؤيدة لكي تتوقف عن إقناعي بصحة رأيها..

مرت بجانبي امرأة بدت لي أنها جميلة رغم حجابها الثقيل الذي لم يستطع إخفاء ذلك

وكانت تدفع بعربة طفلتها القافز من عينيها شقاوة العالمين..

شدني مظهرهما واقتربت محاولة أن أسمع عن ماذا تحدثها فقد كانت الصغيرة ترفع رأسها للخلف تسأل بصوت عال وأحيانا تطلبها أن تكمل ؟!

ماذا تكمل ؟؟

أردت أن أعرف..

أحست بي و أسرعت بخطواتها

فصرت خلفها .. جاريتها رافعة كتيبي حتى تعلم أني لست ميالة او متطفلة لحديث تافه على الأغلب!!

-كان يبكي العطش و الحر .. ولأنها أم فذلك موت يلاعبها هي

"بدأت أسمع الأم تقول ذلك رغم خفض صوتها "

"ليه تخلص المويه بسرعه ؟ " تقاطعها الصغيرة

انتهى الماء بمرور الأيام كان لابد أن ينتهي فقد كان قليلاً

تردف الأم تعبه " خليني اكمل"

تنصت الصغيرة وعلامات الحزن قوست شفتيها للأسفل !

أكملت الأم ..

"بدأت تجري من هناك وتصعد على ذاك الجبل " .. وتشير إلى المروة

"وتعود هنا وأعادت هذا الشيء سبعا بلا إحساس بالوقت و التعب"

" بس أنا تعبت " تقاطعها الطفلة بشقاوة لذيذة

ضحكت الأم و أخذت منها قبلة حب تشكرها بها على نسيان التعب وكنت أريد قبلة مثلها أرمم بها حاجتي و أرتق بها روحي و لو قليلاً !

إبتعدت مكتفية بهذا الكم الذي أثار فرحي و حزني و غيرتي في آنٍ معاً !

أراحني وجود هذه الأم فهل سأكون مثلها .. ام مثل أمي؟؟

هل سأرث منها الجلافة و النرجسية والغرق بالذات إن أرادت حديثاً معنا فهو لسرد حكايات عمتي و زوجة عمي فلان وعمي الآخر وكل من على لائحة المغضوب عليهم من أقارب والدي

لم أعهد أمي في يوم أن حكت لي حكايات أو تحاملت على ضعفها وتعبها وضحكت رغما عنهما .. مع أني كنت طفلة يلتفت إليها الجميع و شقاوتي يحكى فيها أحايين كثيرة من الأقرباء

تمنيت أُم .. ليوم واحد الآن أو في المساء .. أو غداً

أريد طقوس الأبنة و أمها .. أريد أن ألقي رأسي الثقيل على صدرها الدافئ

و أحكي و أثرثر و أبكي لأرفعه خفيفاً..

يعود لي رأساً طبطبت عليه أم فللأمهات عمل السحر في نفوسنا.

لما بعض النساء تبقى فتاة مدللة أو مراهقة لا تكف تذمراً متى يعلمن أن للمرأة غرائز في كل عمر تثور غريزة و تنطفئ أخرى

تبدأ طفلة لا غرائز ثائرة عندها إلا اللعب والمرح و الحرب الضروس لكسب إعجاب

أبيها والتغنج في حضنه والتوحد فيه..

فصبية مراهقة لا تهتم إلا بنفسها وغريزة الأنا والتمرد تطغى على غرائز أخرى أفلت وغرائز أخرى لم تبزغ بعد!

ففتاة متزوجة تصحو بها غرائز الأنوثة والحاجة لرجل يسدها فتتفنن في الطلب ويتفنن في الكفاية لها..

فيحين للمرأة تلك أن تكون أم ..

الا يفترض أن تغلب غريزة الأمومة كل غريزة سواها فيها؟

أمي بقيت في المرحلة التي تسبقها ولم تحيد أو تتحرك قيد أنملة عنها !

بقيت مدللة أبي .. تغار مني و هند لو رأته في لحظة حنان أبوي معنا وتختلق ألف حجة لتنهي تلك اللحظة !

كنا نتساءل أنا و هند قد تكون زوجة أبينا ولا نعلم !

لكن تمّن علينا أحيانا حين سفر أو غياب والدي بلحظات حنان و ألفه فنفرح بها

ولا نسأل عن ما فات خوفاً من دلق اللحظة

فقد كنا عطشى .. لن نسأل ونتذمر لما تأخر وقت السقاية

بل سنشرب متى ما أمكن وبقدر ما يمكننا من كم

إرتبكت هند من بكائي الذي أجهل متى كان و بدأ !

قربتني لحضنها و وهي تسأل ما بك وتكرر .. قلت لها أنه دهس قدمي وأنا أشير إلى رجل صغير يدفع عربة معتمر مسرعاً لا مبالي بممر العربات المخصص..

فقد تجاهل النظام وتجاهل قدمي صانعاً لنفسه طريقه الخاص

ولو عاد لشكرته .. فدهسه لي منحني مبرراً قويا للبكاء فكان غطاء كرامة لروحي من الضعف الممطر دموعاً .. فلا يبرر نزول المطر إلا رعداً قويا كرعد الدهس الذي كان !

فعواصفنا الداخلية برعودها وبروقها لا يفضحها مطر .. تبقى هناك تتجرع الجفاف

والبرد والحاجة لأرض خصبة لتهطل عليها بسلام..

ويكون صيباً نافعاً .. يلقيك بربيع الراحة و الاطمئنان

_"جوالك اللي يرن" ؟؟ قالت هند

تنبهت لهذا الصوت .. استدركت إن له فترة يدق بأذني ولم أنتبه أنه صوت هاتفي !

_اهلا..

_"أهلين حبيبتي " صوت ليلى

_"ليلى " تهدج صوتي خائنا لي

_ "صبا .. صبا"

...

_"خلصتي عمرتك ؟"

_"الآن"

_"طيب أكلمك لما تخلصين"

_ "مع السلامة" أنهت ليلى المكالمة سريعا !

_"مع السلامة "

حين رفعت ناظري رأيت زهرة نبتت وسط المسعى لو جلست جانبها لكنت اثما واذى للمسلمين !!

صغيرة بيضاء بذيلي حصان قصيرين جداً تدور برداءها المزموم المنقوش بورود صفراء على خام أزرق من الشمواه

وحين ينتفخ ثوبها تجلس بسرعة لتصنع منه دائرة حولها على أرض المسعى البيضاء اللامعة

كانت جميلة و تشبه الدمى..

لم أقاوم أن أحضنها وأقبلها من وجنتيها الناعمتين و أهرب قبل أن يروني أهلها

أعتقد أني أريد طفلة تشبهها.. ولكن فهد أسمر .. و أنا أريد أطفالي نسخاً منه .. فهد!

كيف أنجب منه .. ؟!

من خائن

كيف عدت بلا انتباه لصنع أحلامي برفقته ؟!

اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين .. وأصلح لي شأني كله..

أنت حبيبي وحسبي و وكيلي

سرت في عيني غفوة تلح علي بالإسراع إلى البيت بعدما أنهيت مناسكي

أردت البيت سكنى و حبوراً بعد يومي الطويل

كان فندقاً يجاور الحرم و يطل على ساحته..

كان جميلاً .. من مظهر بوابته وفخامة البهو فيه ، بيتنا البعيد ..هناك في القصيم ايضاً جميل و واسع

أكبر من بيت كل من نعرفهم و لكنه أوهن من بيت العنكبوت !

طالما إعتنت أمي بهندسته وتنظيمه .. مرتبا ناعما أحبه و أخاف منه من شدة هشاشته !

هالني منظر شعري يسد فتحة الماء في البانيو متكومة بلونها الأشقر طويلة و ناعمة هزيلة

تخلت عني متجهة الى العدم..

لم أحب هذا اللون يوماً فالحنين الى شعري الأسود يتجدد كلما وقفت قبالة المرآة و أنسى للحظات من هذه الشقراء!!

قال لي مرة ونحن بين الغيوم نعتلي السماء

_" شعرها شيء"

_" نعم! ؟"

_" صبا أبي زيه"

_"زي هذي؟ ما تشوفه كيف قالب أورانج صدق فراغة عين "

_" حبيبتي غرامي الشقر " يمارس لعبة الإستفزاز و رغم ذلك أوقعني بفخ الغيرة ،كرهت المضيفة وكرهته وكدت القيهما معاً من النافذة وعقدت العزم على التلون والتحول لشقراء .. صهباء أيا يكن .. لأريه كيف تخبو الشقراوات بعدي في عينه !

وفعلا .. بحثت عن أفضل صالون نسائي في تلك المدينة الضبابية .. وخرجت منه شقراء أجهل من أكون !

لعينيه ولرضاه الذي أبحث عنه وإن لم أعترف له يوماً بذلك ، هذه الخصل الهاربة مني أعادت لي تفاصيل لم أنتبه لسوء نتائجها إلا الآن !

الرجل الذي يرى النساء كحبوب الشوكولاتة الملونة.. m&m

هو طفل يريد تذوق كل الألوان .. رغم أنها بنكهة واحدة

دللته ففسد !

استعادة لون شعري.. أول ما سأفعله هذا المساء

أعادتني برودة المياه إلى لبس معطفي الأبيض والخروج

قبلة ناعمة على خدي أنهت هدنة مع نوم متمرد رفض وطء أرضي و غزو رأسي المتخم بأسئلة عزباء لن تزف إليها يوما أجوبة تطفئ وهجها وتقّض علامة الاستفهام بها ستبقى ممنوعة من الطرح .. موبوءة تجرح أذانهم و تدنس لسانك إن مرّرتها ..إن نطقتها نخبئ نصف حروفنا بمخبأة تأتي لزاما مع عباءاتنا الشرقية .. جبناء نعجز عن وصف شعورنا .. عن حروف النهي .. عن جمل الإعتراض .. والإستنكار تعقف السنتنا علامات الإستفهام الملتوية .. فنحرمها كتحريم الخمر على موائدنا فهي تُذهب العقل وتنشر الضرر أكثر مما تصلح ، حشروا بنا ذلك حشراً إبتلعنه كثيرات وغصصن به أخريات فنختنق نبحث عن إيمان يدفعنا بقوة لنلفظ به هذه الشوكة أو لا مبالاة لنبتلعها فبين البين احتضار لا يداويه موت!!

نئد جُلّ حروف اللغة ونقلب التشكيل ونغير الحال الى حال آخر ونستر الضمير الصارخ الى ضمير مُقدر لا حاجة مُلّحة إليه !

نحن مرضى بالستر بالعيب بالممنوع .. مبتوري الألسن والأرواح

ليت الحبر يُمسك بحروفي قبل عبورها بجسور الجزر خاصتهم .. بما لا يصح ولا يليق بامرأة شرقية .. رسموا خارطة كبيرة لا منتهية عريضة عظيمة وهناك بزاوية تكاد لا تُرى دسونا كحشو تضغطه وتضغطه لتملأ المساحة المحدودة .. فلا مناص منها ولا نوال لزيادة لها !

حتى الصدى يريد حيزاُ ليكون .. ولا حيز لنكون نحن بالأصل ., ليكون هناك صدى

أيكون الشيء قبل فعله .. ؟؟

نحن لا نصرخ .. لا نستطيع ولو أردنا

كانت قبلة ليلى رسالة من رسائل إطمئنان ذاهبة و آتية تهبني بها راحة و ملاذ و أهبها بها قوة و حصانة..

أجدها أم وتجدني أباً

صديقة عمري .. تشاركنا رغيف الطفولة معاً وتسلقنا سلالم السماء بمراهقتنا وتعثرنا ليتلقفنا بحر غصنا به معا وتلاعب بنا جزر و مد..

إعتلينا الغيم وتوسدنا إسفنج قاع البحر .. تطير بي و أغوص بها

أنا وليلى نختلف .. نكتمل ببعضنا نصف مجنون و نصف وقور

تكمل نقصي تارة و أنقص كمالها تارة أخرى

لا النقص ولا الكمال مطلوبان بتمامهما!!

كل له وقتة .. أن تكون كاملاً في وقتٍ ناقص خلل و أن تكون ناقصاً في وقتٍ كامل خلل أيضاً .. لا الطير يغويه الغوص ولا السمك يهتم لغواية السماء فلحظات الجنون لا تُحسب فالخروج عن الهوى هوى عابر لا يدوم ولا يراد به الدوام!!

في الطفولة تكون أو لا تكون .. قد يأتي شاذ عن هذا الطريق و يحفر طريقه بأظافره يختار قِبلته ويقرر أن يكون بوصلة لا تحيد ولا تتوانى عن هدفها .. يحفر ويسوي ويرصف طريقا خاصا به يطمر مرايا بذوره في أرض بور لا حراك في رحمها و لن تلفظ في يومٍ ما ما دسّه فيها!! ..

لا يهم إن كان الأصل حلواً أو مُراً

فبوصلته تشير الى ضد ما كان لأنه قرر بأي المحاريب سيخشع !

أما أنا فقد كنت طفلة بطعم بسكويت الزنجبيل لاذعة ولكن هشة شهية تثير الضحك والحب وتكسر جمود الأشياء والأفواه من حولها تشجيعا أو توبيخاً على الأغلب!!

أخرب كل ما حولي وحين ثورة أحدهم علي أقفز في حضن الوطن حضن جدتي لتلتقطني بصدر مفتوح لي كل الوقت ثانية بثانيه حتى سويعات غفوتها لطالما

بترتها لها حين أفتح ذلك الباب منطلقة الى سريرها لأغوص فيه معها هربا من صوت غاضب خلفي سرعان ما يغص به صاحبه حين رؤية يدي على قبضة باب غرفتها !

غرفتها جانبية قريبة من مدخل البيت إختارت أمي لها هذا المكان حتى لا تنزعج من زائريها ولا يغتصبوا خصوصية منزلها في كل وقت وحين كما تزعم .. نتنفس الصعداء بهذا الحيز كلما اختنقنا أو غشانا سواد الحياة

تنظر الى من يعتقد أني أستحق عقابا على أفعالي بعين توقفهم عن نواياهم تجاهي فقد كنت متحولة سريعة ومبهرة من شيطان شقي الى ملاك بريء كل البراءة من كل الآثام المنسوبة لي أمامها .. فتنظر لي متسائلة كيف يعتقدون أني قادرة على إزعاج أحد.. تغضب أكثر وأنا أغرق حبا بها أكثر

أحن الى أمي لولوة

الى كفوفها البيضاء العتيقة وأصابعها المبرومة برؤوسها المغموسة بالحناء الأحمر القاني وذينك الخاتمين اللذان اشعر أنها ولدت بهما!!

أحدهما بفص أزرق والأخر ملفوف على قدر أصبعها الأوسط أبرمه لها كلما أحتضنت ذلك الكف أداعبه ويدللني .. آه كم أنتِ قريبة بعيدة , لو تعلمين بحاجتي لك لنفضت تربة قبرك وتجللت بكفنك قادمة إليّ غير آبهة بالمشدوهين حولك بعجوز إستندت على عصا ردموا بها قبرها وتجللت بكفنها كما تتجلل بمصلاها حينما كانت من الأحياء .. فقط لتذود عن ابنة قلبها و طفلتها التي تركتها تلهو أسفل السلم حين صعدته !

لم تموتِ لحظة في داخلي , تواريتِ ذات نهار بائس لم يكن ذا حظ ليعرفك، قبل أن يطلع متبخترا كنت قد أزفتِ مع أزوف الليل..

بائس من لم يعرفك ..من لم يحضنك .. بائس من لم تدلله كفوفك .. من لم تخصلي شعره بأصابعك .. بائس من لم يسمع قصصك وعظمتك .. بائس من لم يعلم أنك امرأة صنعها الكفاح وصبغتها الشمس وأرتسم ألف خط وخط من التعب والألم والصبر على كفوفك ومازالت تبتسم وتعطي وتهب وتخلق ألف فرحة وفرحة..

بائسة أنا بدونك يا جدتي!!

تصرخ هند بإسمي لتوقظني بصوتها العالي لأفتح عيناي رغما عني وكانت ليلى أمامي فعلا وليست حلما تراءى لي ها هي تجلس قبالتي على حافة السرير بوجهها الجميل وعينيها الناعستين اللتان لطالما تشاجرنا بخصوصهم هي لا تحبهما ولا تحبني حينما أردد أنكِ القبيحة الجميلة بهما!!

قبلتها وحضنتها وأشارت لي أن أصمت عن أي سؤال .. مردفه:

_" خلينا ننزل نتقهوى ونتكلم"

وكانت عيونها توحي أن هناك شيئا سيقال غير المعتاد

ونهضت .. وكان القلق سباقا بالنهوض قبلي !

...

أثناء إنتظار قهوتنا على طاولة توسطت قاعة داخلية هادئة وخاصة بنزلاء الفندق كانت هند هي من إختارها وعادة لا أوكل هند بأمور أبسط من هذا الأمر فكيف بإختيار مكان أريد العتق فيه من عيون لزجة تلتصق بكل عباءة سوداء تتشبث بلا دعوة أو قبول في صدور العباءات ومؤخراتها لزوجتها مقرفة تثير براكين صرخة داخلي كممت كثيرا في هذا البلد فلو دوت لعاد إثرها على تلك العباءة و لرميت وراء قضبان الفسق والفجور بتهمة زركشة أو تطريز جهل الترزي حينما زرعها أنها مدعاة إنتصاب وفوضى لأشباه الرجال وأنصافهم !

مخزون الغثيان يفيض بي حينما أحلم بمكان لم تنزح إليه عيون قذرة منتصبة تريد الغرز بي شئت أم أبيت ولا أجد..

أحتاج أن أتجرأ و أقامر برمي الزجاج ومعجزة أن لا أُخدش كأقل الضرائب فلا بد من ضريبة لكوني زجاجة

لذلك لا أقامر فالغثيان أصبح مرضا مزمنا في السعوديات

لا يصرف له دواء فلا شكوى منه بالأصل

أتت القهوة وقبل أن أرفع فنجاني رمقتني هند بنظرة أن أتأنى فطقوسها وهوسها الأخير بالتصوير و إلتقاط الشاردة قبل الواردة أصبحت معتادة بالنسبة لنا فصديقات الأنستقرام وبنات العائلة وأخوات زوجها وبنات أخواته وإخوانه و جارتنا أمل وزوجات أصدقاء زوجها وكثير من الغرباء يعلمون ما يدخل فمي ويعلمونه حتى قبل أن يدخل وأجزم أنهم تفحصوا مخدعي فوق قبل أن أندس به حينما كنت أستحم !!

ابتدأت بالالتقاط وأنا فقدت صبري فرفعت فنجاني عازمة على تناوله أو سكبه عليها لو منعتني فلست بحالة صبر على غواية القهوة بعد تعب اليوم ونومي السيء .. وها هي ليلى أقبلت آتية إلينا بعدما إنسّلت منا عند باب المصعد فجأة بكلمة سريعة:

"عائدة "

كانت هند تلتقط يد ليلى وطرف كمها !

التزمت ليلى بتعليمات هند و رفعت فنجانها مرة وأخفضته مرّات

ودست هند قطعة صغيرة من الشوكولاتة المغطاة بجوز الهند بين أنامل ليلى لصورة أخيرة كما تقول .

قلت لليلى " تبين نقوم ونخليها تصور الكاسات والصحون

وعساهم يتحملون وما يلحقوننا" !

ضحكت ليلى قائلة "حرام عليك"

ليلى لهند " كملي لا تهمك "

خائفة ليلى من طنقرة هند والمليون كلمة هيروغليفية التي تتمتم بهم بالطبع نسمع ولا نفهم فنعلم أنها لغة تذمريه غبية ولو الأمر عائد لي لا أهتم بها حتى يعتدل لسانها ويصبح مفهوما لأتعاطى معها وليست قسوة كما تسميها ولكن طاقة إحتمالي لهذه الأمور هشا أوهنته كمية المجاملات والتجمل ومخزون لا ينتهي من الكذب الوسيم كما نحب تسميته حتى تأصل واصبح كذبا بقرنين على رأسه ينطح بهما من أمامه وخلفه وجنبه .

تويتر فيس بوك مدونات وقبلها المنتديات تدرجت فينا أو تدرجنا فيها ولم تكن باطشة بنا أو باطشين بها .. أما الأنستقرام ظننته في بادئ أمره فقاعة سيلهو بها مجتمعنا قليلا حتى يمل منها فيغزها لتتلاشى ويأتي آخر جديد لنكرر به اللهو !

ولكن ما ظننته عابراً أراه الآن سافراً باطشا بلا روّية ولا رحمة فزمن الكلمة والحرف ومخرجاتها من تويتر وفيس بوك لم تكن المفتاح المناسب لقفل باب مجتمع مثل مجتمعنا كان بقفل عسر لين , سهل معقد , محتشم عاري .. الأنستقرام مفتاح ذلك الباب العاتي العتيق عراقة والشامخ صيتاً .. ها هو حداد محترف عرف دواء ذلك الباب .. دسه وفتح به بابا لطالما كان موصداً

ما كان خلف الباب ؟

فتح الباب على مصراعيه .. وتراقصت خيباتنا على مسارح بلا تذاكر .. إصطف من إصطف .. رفع الستار وتزاحمت العروض

لم أرى إلا تفاهة وغيا في التفاهة .. عرض أول , عرض ثان , عرض آخر

كثرت الأسماء وفناجين القهوة التي سبيت ضمن ضحايا الإستعراض المتقن لالتقاطه صورة .. وإن أرادت غبية أخرى إتقان عرضها جلبت كتابا يرفد كأسها البريطاني المملوء بقهوة عربية باردة بعد الإلتقاطة السبعين!

أي أنها تُقّر أن الكتاب يسد خرما ويكمل نقصا مع أن الغلبة الآن للمخرومين

كل سقاية تشُرب تترجرج هنيهات وسرعان ما تلفظها خرومهم كأريكة جلدية لا توالي مؤخرات العدو أو الصديق ولا تتعرف عليهما ،ذاكرتها زلقة فلو بال أحدهما لن تشعر أو تعلم حتى ، جربي أن تقرئي فعلا.. سدي الشقوق بالأول فلتلصقي ضمادة صغيرة هنا وهناك حتى نجد حلا لا يسيء لمظهرك ، ستختلفين و سينطق الاختلاف وينبت لكِ جناحين تطير بكِ من غيابة فنجان قهوتك الباردة المهملة إلى قهوة ساخنة حقيقية ترتشفينها وعينك على منتصف كتاب تثبتينه بيد و قهوتك بأخرى ناسية أمر الصورة والآخرين !

ولكن عبث أن يتزحزح الجاهل وأن نفكر أنه يريد ذلك بالأصل

عروض مرتزقة ومحدثي نِعم و نكايات تبدأ ولا تنتهي

هذا ما وراء الباب هذا ما كان مخفيا .. تعرى الآن ولك أن ترى وتعلم ما كان لون أظافر زوجة صديقك ليلة أمس بكل أريحية..

غواية المال والرغبات والعنصرية تمادت فتنة فأشعلت رغبة بربرية بعد طول عطش فكان هذا البرنامج كالملعقة التي حركت الراكد في القاع

ولم تكن قطع سكر أبداً !

يذكرني بسفينة التايتنك وعالم روز البرجوازي الذي إعتصرها و حشر أنفاسها فكرهته وإشمئزت منه وكان جاك هو الجناح الذي طار بها وحط في الطابق السفلي طابق تنافسهم الجرذان فيه رغيفهم وترقص معهم حين تدق أحذيتهم الخشبية القاسية ظهر السفينة متمايلين ثملين متشابكي الأيدي والأرواح لم تكن روز برجوازية تلتقط صحن السفرة المنقوش بورود كاث كيدستون ولم تكن تضع منديلا على فخذيها بإتقان .. كانت مشغولة الفكر ومأخوذة بصراخ امرأة الى جانب طاولتها على بنتين صغيرتين لم يتقنا تزييف النضج فكان توبيخا للبراءة كي ترحل .. فقررت روز لحظتها أن ترحل هي من هذا العالم لعالم جاك..

نار الطبقية يتلظى بها جيل جديد أشفق عليه لأنهم سلبوه القناعة والرضا بسكين وشوكة تمادت ثرية جوفاء بتقطيع قناعاته و دلقت ما ملئت الأمهات به كؤوسهم بكل عنجهية

بكماء صماء تسمع خواء داخلها ككهف تصرخ به فلا يعود لك منه شيء عدا صوتك .. وذلك منك لا منه !

فقاعات تطايرت نفختها طبقة برجوازية لسماء الكادحين والمتوسطين القانعين أبهرت بذور عنا الفلاح بدسّها وحرثها لتنبت له ويفرح فيفيئ مرتاح البال بها .. ولكن أنى له الآن ذلك بعد أن تذمر البذر على الأرض والتربة و السقاية .. يريد ما رأت عيناه بتلك الفقاعات .. يريد أن يطير!

كيف بالبذر أن يطير .. كيف بالفلاح أن يسقي ويرعى وهناك من يعثى بأرضه!

كيف نقنع صغيراتنا أن كل ما يرين جعجعة لا طحين منها وأن وزن البنت بصوتها وبما تخلفه من أثر حقيقي باقي حفرته بأظافرها لا أظافر أبيها

تفاهة!

لما أنا غاضبة!! ؟

ممن غاضبة ، من هند؟ .. من الجميع ؟

أم منه ؟

وأتى دور إلتقاطة للمكان ومع رفع كاميرتها رفع الشباب أمامنا ظهورهم المنطوية قبل قليل وتهافتوا على تعديل هندامهم وتوزيع بلاهة أم هي ابتسامة ؟!

كان ضجيج ارتطام فنجاني بالصحن بداية ثورة معلنه على هند " أكبري لمتى هالتفاهه"

قالت ليلى" روقي"

أنا" : مروقه بس لاعت جبدي"!

ضحكت ليلى مستقبلة إشارتي بسرعة وقالت "كان هنا" !

_قلت "أدري .. إحكيلي ؟"

وعرفت أن طلال لحق بليلى مستقلاً أول طائرة من الكويت لجدة هذا اليوم منهيا حيرتها بالتفكير الذي تمادى معها من سنتين بلقاء طال سؤاله منها ولم تتجرأ ولن تتجرأ هو يعرف وأنا أعرف ذلك فهذه النحيلة كندى يتبخر أمام هجير المغامرات ،ترتبك ولسانها الفصيح المتباهية به أمامنا يلحق عداد المفقودين!

تلك ليلى

أحبته بطريقة غريبة وبلاغية وكنت أقول لها بياع كلام من يحبك بهذه الطريقة إن عرفك بتويتر فأين تلاقت الأرواح ؟

أذكر ذلك اليوم وأذكر كيف أرتبكت حين أطال سؤالها عن موضوعها الشهري لمجلة إلكترونية ناشئة باجتماع عقدوه عبر السكايب وللمصداقية ومعرفة جدية الأعضاء طلب منهم أن يفّعلوا الرؤية لدقائق وحين استأذنت أن تغلقها

سمعته يقول " : شوية يأبوي ماراح نأكلج"!

كانت منقبه بلا أي مساحيق لعينيها .. وهل تحتاج ليلى ؟

مع أني أشرت عليها أن تضع ولو ماسكارا فرفضت خشية أن توحي بشيء مشين،

هكذا جبلوا" القصيميات"

نخشى أن نلمح .. نخشى أن نوحي .. نخشى أن نعيش

ردت على سؤاله بإقتضاب وخشونة .. وأغلقت الرؤية والبرنامج كاملاً !

لا أذكر أن ليلى تحدثت بشأن تلك المحادثة ولم تتعدى كونها عملا بالنسبة إليها أو كما كنت أظن حتى أتتني بعد أيام تريني رسالة منه وكانت رسالة أولى كتب فيها "وماكنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق"

وضحكت كثيرا حينها وهي متصلبة متوترة لا تعرف ما يفترض أن يكون ردها؟ تتشبث بي وهي لم تحتج يدي يوما أو لساني لأبعد عنها متطفلا أو متطاولا والآن مدت يدها وذلك على غير العادة ،لأن الصد الآن متواري ويأبى على قلبها أن يناديه وهذا هو العادي في حضور اللا عادي لحياتنا.. كان وقع طلال عليها وقعا لم أتوقع أن أشهده على ليلى يوما وربما لأني طالما تخيلت شكل حياتها العقلاني والمخطط لها من أمها الاجتماعية التي رسمت لجميع بناتها شكل الحياة الذي رغبته فتلقطت أفضل أبناء عائلتها ليكونوا أصهارها فجزمت أن ليلى ستتزوج المرموق بينهم إما دكتورا أو مهندسا أو حتى شيخا جديدا خجولا يبزغ نجمه بين العائلة والأهل بسرعة تعادل سرعة نمو لحيته ، توقعت اشياء كهذه لها إلا أن تقع في الحب ومن خارج العائلة .. بل من خارج البلاد كلها!

قالت" : ما رأيك "قلت" هو رأييك"

فردت غاضبة بقلة صبر " صبا موب وقت استهبالك" !

قلت " هو رأييك ياليلى .. وكلانا نعرف ما هو ،لذلك تجاهلي المفروض و إن كان يستحق فكي وثاق خطواتك وفضي بكارة الحب إن رغبتي لا تقامري به على طاولة الزواج ففداحة الخسارة لا يجبر كسرها إن راهنتي عليها بحب وهي طاولة فقط ! ،ليست بإبريق علي بابا لنطلب ونطلب ونجزم أن الحب متاح وحاضر في بطن الإبريق بينما يكفي أن نقامر بإعتقاد إن الحب محتمل وحظ جيد إن حظيتي به بزواج العادة ،زواج شختك بختك وإكشط وإربح ورهانات لا تنتهي على هذه الطاولة المظلومة بنا ، لذلك فلنظن ونعتقد ونأمل فقط إن كنا نطمع برتق الخيبة إن لم نفز بالرهان وكان زواجا عادياً .. عادياً فقط "

ذهبت ليلى حزينة وظللت أؤنب نفسي على قسوتي فأرسلت إليها رسالة نصية:

"آسفه ،ولكنك تستحقين أفضل مما تعتقدين .. أعذريني"

وأتاني ردها " عادة الأصدقاء أن يكونوا حلفاء حتى وإن لم يعلموا .. وكنت حليفتي اليوم ،شكراً"

علمت أن ليلى تتنفس الآن ويمارس قلبها حقه الشرعي بالنبض لأول مره منذ خلق وكان ، كنت حينها ألون أظافري بلون أحمر أمقته فمهما حاولت أن أرفع من قيمة هذا اللون فأقصد عند شرائه ديور أو شانيل ليكون منهما إلا أني مقتنعة أنه لبنات الهوى وسيظل رخيصا وإن كان فرنسيا باهظ الثمن ولكن فهد يحبه ويحب تقبيل أصابعي و يروق لي ذلك فأنصاع مشتاقة لجنونه و فنونه في التقبيل حين يلمح هذه الاشياء الصغيرة التي عنيت بها من أجله ومن أجل حبه لها وإن كنت عكس ذلك

وهذا سر اللهفة التي تسري في عروقه وينضح بها دمه ليكن بركان شوق ورغبة فيدللني ويكن كل ما أريده أن يكون ويفعل كل ما لا يريد أن يفعل وقد يكون هذا

سر إيماني به ؟

قد أكون نسخة من أمي لا تعرف من الحب إلا الطواعية

و لا تخبر منه إلا الخضوع لها ؟

أمي إمبراطورة سليطة القلب ،مسننة الروح يصعب فهمها، فالتعامل معها يسقطك في حيرة ينقطع يقينها حينا ويوشك على الوصل حينا آخر ولكنه لا يكون أبداً .

جعلت من حياة والدي لهاثا ليثبت لها حبه و ولائه ،كل شيءٍ عداها هباء و يأتي على مهل و في وقت لاحق .. وماتت جدتي قبل رؤية اللاحق من وقت أبي ومازالت وجوهنا مرتاحة على أكف أيدينا نراقب السباق الذي لا ينتهي بوسام فوز ولا ميدالية جدارة من والدتي ، كنت دائما أعكس الصورة فألتقط والدي المنهك من الجري وأجفف عرقه وأقبل يده وأرجوه أن يستريح قليلا .. ومن ثم بأناملي الإبهام والسبابة أرفع والدتي وأضعها في مضمار السباق الذي فرضته على والدي المسكين و أأمرها بالركض، نعم الركض !! لما لا

لما لا تلهث هي ايضا لنوال رضا أبي أو لتثبت له بنفس طريقتها لإثبات الحب أنها تحبه هي ايضا ! ، ياه كم أتمنى هذا المشهد للحظة واحدة أريد أن أختبر حبها حقا

هل تحبه حقا؟ أم تحب حبه لها ؟

هل تعاقبه ، هل تنتقم من شيء به ؟ إنه ضعيف أمامها وقوي بها

هل هو سعيد ؟ هل قلبه ينبض أم أنها ذات غواية لا يقوى على فك قيودها عنه

هل تشبع غرائزه ويودعه ذلك خلف قضبان الجسد وبلله يغرقه ؟ أم أنه سباح لا يحتمل العيش بلا بلل ؟

أتذكر جدتي في تلك الليلة الماطرة كنت اتوسد صدرها وصوت نجاة الصغيرة يدغدغ اسماعنا على غير رغبة منها ولم أكن أزعجها أو أرغب بذلك ولكن لا أقاوم هذه الرغبة باحتضانها على صوت نجاة وحليم وكانت تقرصني بيدها من خاصرتي بحنية محاولة إنتزاع جهاز التحكم ولا تستطيع فهذا أحد طقوسي الفردوسية معها وهي كثيرة ويجمع هذه الطقوس لتكون فردوسية أن تكون هي شريكتي فيها فقد حرصت دائما على تناول غدائي معها بعد عودتي من جامعتي وكانت تستيقظ قبيل الظهر وترفض أن تتناول إفطارها وتؤجل الدواء حتى تستطيع إشتهاء الغداء بموعدي حتى أصبحت عادة إعتادها الخدم والأهل وكان هذا الأمر واحدا من أمور تثير غيرة أمي وتحاول إثباطها بكسل فهذه اللحظات لا تدوم معها طويلا تفتر وتتساقط حتى لا تكاد تذكرها ، كانت تلك الليلة خانقة على أنفاس جدتي رغم أن السماء حاولت تلطيفها بغز سحابات منطقتنا ليهطل منها مطراً مرسلا ليريحها قليلا ، كنت مؤمنة أن هؤلاء الذين يشبهون جدتي تصل دعواتهم للسماء ويسامحنا الله بهم ومن أجلهم فقلوبهم بيضاء وسريرتهم خالصة ، تكره الدنيا و تحارب حتى نفسك فتقابلهم لتشعر بسخافتك و حقارة أفكارك تبهرك هالة السلام و الطمأنينة و اللا يقين بالشر ، يرفضون أن يقتنعوا به مع أنهم روحانيين جدا ، طالما غضبت من أمي أو من فهد ولطالما وجدت مبررا لهم وتقنعني بذلك أو لأكون صادقة تضعني عند نقطة اللا غضب وأن الخطأ ليس بفاجعة فكلنا نخطئ ، تردد هذه الجملة كثيرا حتى بت أنتظرها تخطيء ولا تخطيء!

تؤمن بالخير .. بالله .. بمحمد.. وأبو بكر وعمر وهي لم تراهم ، ترى الجنة وتصفها وأفضل دعواتها للجميع جغمة من الحوض ورؤية وجه نبيكم ، تؤمن بلا علم ولا جامعات بكل هذا ، وترفض أن تؤمن بالشر ولو شددت بمناكفتها أنه حقيقة موجودة وسبب كل المآسي في العالم أقف حين المح الحزن بعينيها الصغيرتين فأقبل رأسها وتقبل رأسي ونصمت حتى تتبخر الفكرة أو أحتال أنها تبخرت.. لتبدأ بحكايات أخرى قديمة لذيذة تفوح منها رائحة البخور والحب والدفء وأشعر أن السماء تدنو لتتوسد كتفها الآخر و تنصت معي!

في تلك الليلة مر والدي متأخراً ليلقي السلام عليها في غرفتها بعد عودته من عزيمة عشاء لصديقات والدتي وازواجهن ولاحظ أنها متعبة ولونها غائب قليلا فسألها عن صحتها وكما خبرتها لا تحيد ولا تزيد عن" الحمدلله بأحسن حال"

فقلت أنا": تحتاج الملطف وجهازها القديم تعطل فجأة"

قبل أن ينهض كان صوت جواله ينهي هذا الحوار وينحر فكرة ذهابه للصيدلية التي راودته قبل نداء الإمبراطورة!

فقال " : بكرا الصباح لابد أن نحضر جديد " وقبل رأسها وخرج صاعدا لغرفة نومه.

غضبت رغما عني ونسيت تحذير جدتي بألا أغضب!!

كيف أرى رجلا عظيما مثل والدي ذا الصيت والمال والهيبة يراوح عند فخها ولا أغضب ؟كيف ؟

هل يسعد الساقطون بفخ الحب ، أم هو فخ الرغبة ؟

كانت ترتدي زيا منسدلا اليوم أتت غرفتي لتريني قوامها بعد رياضة دامت شهرين خاصة برفع مؤخرتها و مسح غمازات وركيها وحسبما رأيت أتت أكلها وكانت نضره وجميلة كما تعودنا عليها.. لم تنسى أمي أبدا أنها جميلة ولا تريد من أحد أن يفعل وكيف بوالدي أن يفعل ، فهي غواية شغلت عقله وقلبه منذ ٢٧ سنة ومازالت.

كان فهد حينها يراودني عن قلبي بكل فرصة تسنح له أو يخلقها لذلك ، لم يخطر على ذهني وقتها فقد تلبدت سمائي بقبيلة أسئلة لا تنتهي يأتي هذا بذاك وذاك يعود على الآتي به حتى غلبني النعاس فغفيت على أريكة قريبة من التلفاز الهامس فلم أستطع الصعود لمنامتي وأنا قلقه على جدتي ففضلت المبيت جانبها وكانت نائمة بهدوء يقتطعه إنتباهات تبعد أو تدني من عينيها خمارها الأسود المخرم الخفيف جدا ، تنبهت على سعال جاف ولا أعلم كم الساعة وكنت أحسبني أطلت النوم نهضت بسرعة أليها فقد تواست في سريرها ناولتها كأس الماء و وواسيت موضع رأسها وساعدتها في الإستلقاء ولم أسألها بماذا تشعر فهذه الأجواء تثقل من أنفاسها وإن لم تشتكي ، عاد غضبي هذه المرة على أبي وقررت الصعود إليه وأنا بمنتصف الطريق تذكرت فهد ، هذا المراود إن أحبني كما يدّعي فليأتي ببرهانه .

عدت الى جدتي باحثة عن هاتفي ومن قائمة المكالمات الفائتة كان هناك رقمه بلا أي اشارة لأسمه فقد كان مثابرا على الإتصال مرتين إلى ثلاث يوميا رغم أنه لم يتلقى جوابا واحدا على أحدها ليحيي آماله بأني سأرد يوماً ما.. وكان يعقب إتصالاته برسالة أو أكثر بسلام أو أغنية ركيكة وبسيطة تضحكني أكثر مما تخضع قلبي كما يعتقد ، إتصلت به مرة وتوقعت أن أعاود الكرة مرتين وثلاث ولكنه فاجأني برده المفاجئ لي رغم أني من إتصل به ، تسمرت لحظات لا أعرف ما يقال وكأني تذكرت الآن فقط أنها الثالثة فجراً

صمت هو ثم" :صبا " وكأني أسمع إسمي لأول مره

قلت بلا سلام أو أدب ": جدتي تعبانه وابغى جهاز الملطف " لم يرد فناديت" الو " أحسست بدوي داخله وكأني صفعته ونحرت ذبحاً راقصة كانت تتمخطر داخله على صوت إتصالي ورؤية رقمي في هذا الوقت المتأخر وحينما وصل دمها حنجرته إختنق به فسعل سعالا خفيفا ليستدرك الموقف فقال : "إبشري!! "

إنتهت المكالمة وظل صوته عالقا برأسي ، ربما قللت إحترامه لأني دائما ما أراه فهد السطحي الشعور البسيط مجامل, ومجتهد مع الجميع ، كان وسيما طويلا بلون أسمر وملامح تذكرني بخالتي وأمي ، لا أتذكره جيداً فدائما ماكنا نلتقي عند مخارج ومداخل البيوت والمخيمات وأماكن لقاء والدتي بعائلتها وقلما ذهبت بالسنوات الأخيرة وخصوصا بعد إستقرار جدتي عندنا فقد ملئت كل شاغر و لا يطاوعني قلبي السهر كثيرا بإجتماعات والدتي وعائلتها وتركها وحيدة في البيت لذلك شيئا فشيئا وجدت نفسه منقطعة إلا قليلا

رن هاتفي وكان رقم فهد وهذه المرة الأولى التي سأتلقى مكالمته ساورني شعور طفيف بالخجل فهو رد طامع لحاجة ، تجاهلت هذه الفكرة وتلقيت المكالمة سمعته على الطرف الآخر يقول " انا عند الباب " وكان صوته مختلفا حاسماً..

قررت شيئا فقلت " : لا تروح بعطيك شيء " ودسست قدمي بخف صوفي ناعم وأسرعت لفتح الباب ووقفت قبالته لم أختبي خلف الباب ولم أطلب منه الدخول بل فتحت الدفة حتى منتهاها ووقفت كمتحدية أمامه نظر لكلتا يدي ولم يكن هناك ذاك الشيء الذي إستوقفته من أجله، شعر بالإرتباك ودفعني للخلف بيد واحده ويده الآخرى يحمل بها الجهاز وقال " : الشارع كشفك" وأردف " وإلا بايعتها حضرتك؟ "وكان صوته أجشا قاسيا وغاضباً ، بدأت أستوعب حينما شعرت بقربه أني أخطأت وأني لا أعرفه فهذا الطويل جدا آسر وعيناه.. آه يا عيناه كانتا دقيقتان وحارقتان أشعر بفوران كل خلية بجسدي وهو قريب يتأمل بيجامتي الساذجة برسوماتها ، كيف لم أنتبه للبيجاما ؟

وكيف ومتى أصبح هو أنيقا وسيما و آخاذاً بهذا الشكل ؟ لا أتذكر أنه هكذا... !

عرفت حينها أني لم أعطه يوما نظرة حقيقية لاتفحصه وأعاين كيف أصبح وماذا أصبح ! قاطع هروبي وقال " : شلون جدتك" أجبت " الحمدلله شوية تعب من الجوو "،" ماتشوف شر ،الف لاباس عليها " قالها وخرج!

بعد لحظات لاحظت أن الجهاز بيدي دسه فهد من حيث لا أشعر وحينما لم أكن أشعر إلا به وبطوله وبملامحه وببيجامتي!

كان ذلك أول لقائي به وأول طَرقاته على باب قلبي وكان طرقا مُسمعا و لا يليق أن أتجاهله ، وهل أستطيع ؟

(2)

تجاهلت ليلى تلك الرسالة الأولى منه ، نفثت يسارها ثلاثا وطهرت صندوقها الخاص من هذه الوسوسة ،كانت تواقة لقراءة موسوعة عنه بلا كلل ولكنها خافت ،إرتعبت من فكرة المسافة بالأرض والتقليد وإستحضرت كل المسلسلات الكويتية في ذهنها ففرت إلى الأفكار الرتيبة الآمنة وإن كانت لا تنتهي بباب الجنة ، الزحمة مريحة وإن كانت خانقة نغلق خياشيمنا ونسبح بقاع نتن برضا مفروض لا تستقيم له وتيرة ، نتذمر حينا و نغضب آخر ونسخر كثيراً ويغدو العمر خائفين أن نتنفس هواء جديدا لئلا تسود وجوه القبيلة مرة أخرى الا يكفيهم المرة خاصة قدومك للحياة ! ، تأبطت اللا مبالاة و توارت عن تويتر لعله ينسى فهؤلاء لا توقفهم فتاة واحدة ولا وقت كافي ليسكب على ردود لا تنبت سريعا ، فخصوبة البنات الآن في التفاعل مع أمثاله إبتلعت صيت البرق بسرعته ، فلما ينتظر ومن ينتظر ؟ فهي ليست إلا عيون ساذجة مرتبكة أحب هذا اللعوب أن يحط على بقية الحزمة من ملامحها فضولا لا أكثر.

بعدها بإسبوعين أخبرتني ليلى أنها دعت كارلا للعشاء خارجا ولأن الأخيرة أستاذة جديدة على الجامعة و البلد ككل ، توطدت علاقتها بليلى خلال عملها على مشروع التخرج وكما تصفها ليلى كانت سلسة ومنفتحة وعصرية وتحاول تكوين علاقات قريبة من سنها والطالبات هن الأقرب لذلك فعملت عليه وتبادلت مع ليلى وطالبة آخرى أو إثنتين أرقام الهواتف و لم يأخذنها الأخريات بجدية كما فعلت ليلى وكان الأمر ببدايته تعليقات على صور الواتس واسئلة المعرفة لطقوس البلد و سلوكياتهم .

تهندم تقاسيمها دائما بإبتسامة رجاء حتى لأولئك العابسات ويتعاملن معها على قدر الحاجة أو أقل خوف الإثم إن تلطفن مع هذه الكافرة!!

تحزن ليلى عليها كثيرا وترى أنها في مقام يلزمها بتحسين الصورة فنحن لسنا هكذا كما تقول وحين أقاطعها بقولي":هل هي علاقة إحسان ورحمة أم ينطق المرشد السياحي الصغير داخلك المسئول عن تجميل وشد ترهلات الشعب بعينها ؟

" لنضحك كثيراً على قصص زميلات ليلى المحرجة مع كارلا وهي تستجدي الود .. الود فقط

إقترحت عليها أن يكون العشاء ببيتنا تزينه جدتي ولنحتفي بكارلا احتفاء تقليدي و معبوق بفردوس من تستطيع محو كل حرج ابتلعته كارلا منذ وصولها فهي شفيع محبة سيعلق بذاكرة هذه الأجنبية وقد تكون جسر العبور لها ، وهل نستطيع الا نفكر بأجر إسلامهم ؟ كل مابعد العبور ليس بذا أهمية الا يكفي أن تنطق الشهادتين كببغاء ملون جميل يندس بين الصفوف ، حينما دلفت بعباءتها الخفيفة وبخمارها المرتخي على شعر أحمر يغتصب انتباهك وإن لم تشأ ، طويل بتدرج محرض على تتابع خصلاته الثقيلة وهي تقتتل فيما بينها أيها سّباق لملامسة وجنتيها السمراء المغموسة بحمرة ناعمة يبدو جليا بفوضوية مدها على بساط خديها المعقودان بذقن بارز وصغير يعتليه شفتان يبدو أنها لم تعنى بصبغهما أو قد يكون تناول زوجها صبغتهما عند باب المنزل أو قبل ولوجها بيتنا ولو بشكل خاطف كوداع روتيني فهؤلاء القوم مهووسين بالقبلات وكأن شفاههم محاريب عبادة تنادي على الصلاة في كل وقت وحين ،سراء ضراء ،وفي بياض اليوم وسواده ،شغبا وشغفا ،فاترا ولاسعا ، كيف لا ينهكون فلحظة لتخيل الأمر تلبسني الإثم

وصدح داخلي تلاوة(وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) تتكرر كقارئ عازم على إخراج هذه الأفكار الشيطانية لأقتنع قليلا أننا ما خلقنا لهذا ، اليس كذلك ؟ ولكن ليلى لم تقل لي أي شيء عن أن باب ما جاء في سبايا الحرملك هو الذي ينفر الطالبات ويثير سخطهن عليها فكارلا ذات وجه يدق أجراس حروب دامية إثر ضغائن إنثوية كثر وأمر الدين ستارة مسدله على حوائط تأبى النساء الإعتراف بها ، الا تعلمي يا صديقتي أنهن حفنة أسماك هشه زلقه ولكن ذكيات في أمر إبتلاع بعضهن ،ربما حسبن أنها عزباء فلتسرّي بأمر زواجها لثرثارة ليتوجسن الطمأنينة على من لا يأمنّ ثبات ملابسهم ولا صياغة شهواتهم ، ليس وقتا جيدا لسوء مزاجي لاسيما وأن جدتي من إعتنت بتفاصيل هذه الزيارة حينما وشيت لها بحديث ليلى عن ما تشعر به كارلا وما تجرعت من طالباتها فعزمت هذه المرأة العتيقة أن تذيقها عذبا و تقرئها سلاما وبدا هذا سلسا سهلا من لحظة دخولها فحين همت جدّتي بالنهوض للسلام بجهد واضح أسرعت كارلا تلتقط يدها وتقبّلها موقفة نهوضها وبعد كومة تحايا من العيار الثقيل بينهما إعتدلت وتصافحت فقط مع البقية كطقس حضاري بلا حرارة مفتعلة إن لم تكن فعلا ، هكذا أفضل بالنسبة لي.

لم تدم مرحلة التعارف طويلا وسرعان ما أنخرطت هي و جدتي في عناق طويل من الأحاديث رغم ركاكة العربية لكارلا وإن كانت لهجة جدّتي تصعب الأمر أكثر فتستنجد بنا لتفهم وكان هذا ملطفا أول لهذه العلاقة حدثتها عن القهوة وعن رائحتها المزفورة من رئة الصباح ، ينتشي بها سيء المزاج ليتهادن مع الحياة و تكن سحرا للمنهك يقوى بها على تمام أمور يومه وعن البخور وبركته التي تجدّلت مع خيوطه بالأجواء فور وصولها ،أتي الحديث بألف حديث إنتقلنا بعدها للداخل لتحظى جدّتي بالراحة ولنحلل عقدة السننا ايضا بسكر الكلام و خمره ونشرع أبواب لا يصح أن يعلم الكبار أننا نطرقها فنتساذج حتى تحين فرصة للعك والعجن فيما يحرم مضغه أمامهم ، دلفت ماري تدفع أمامها الصينية المدولبه المكونة من طابقين مذهبيّن تسبقها رائحة القهوة السوداء لكارلا وقهوة عربية لبقيتنا فقد أرغمنا ضيفتنا اول حضورها بتذوق قهوتنا العربية ولم ترق لها فهي كالماء مقارنة بما إعتادت عليه من مرارة وحلكة سودائها ، بينما كانت ليلى تناولها طبقا وضعت عليه قطعتين من الحلوى الشامية، كانت الأحاديث كثيرة إجتززنا الجُلّ من كل الأشياء وإن كانت سخيفة ضحكنا ضحكات لذيذة مره ومرات مراوغة لتجنب مالا يروق لنا أو مالا يصح الإتيان بصحيحه لئلا نشوش هذه الهدن مع الحياة إلا إن رنين هاتف كارلا فعل ذلك وكان اتصالا قصيرا من زوجها يستعجلها العودة الحيّنا عليها بساعة على الأقل فالليلة ليست بليلة عمل لهما وافقت وهمست له أن يأتي بحلول الواحدة وكان مرضيا لنا ، إتصال زوجها كان مجدافا كبل كل رغباتي الآن به وحصرها في التجديف في ماء كارلا وإن كانت تطوي شواطئه فلم نتعين من ساعة ولوجها ولم نلتقط ايضا من قارعة أحاديثها أي شيء عن خصوصيتها فقد كانت تجمع شُطآنها وتحزمها بعيدا عن كل حديث عفوي وبسيط بحيث لا يمكنك معرفة أي النساء هي مع زوجها ، عاشقه ، مالكه ، تدير أم تدار ، عاطفية سخيفة أم متكتمه وقوره !

ومع ذلك إنثلت عليها بأسئلة عن كيفية لقائهما وكم هم محظوظون بحكاياتهم التي اتخمت قلوبنا وارواحنا ونحن نتفيأ بها من لظى الواقع الكئيب وكنت اسأل بصوت خفيف وعالي ومتحمس لأضمن أن يدغدغ صوتي ربطة حزمتها فتنحل ،فقد كانت ردودها على زوجها باردة مختصره و كأنها تنفضه أو تنفض صوته من أذنها بأسرع ما تستطيع ! طريقة عهدتها من نساء المنطقة ولطالما كان لها شفاعتها عندي فمتأكدة أن الطرف الآخر يستحق النفض والسحق وكل ما يمكن به إختصاره و قص المشاهد الروتينية الخانقة معهم .. لذلك هذا الإتصال لكارلا كسر المتوقع وسرق ذلك الفيء الذي نلكزه ليحتضننا كلما إحتجنا أن نتنفس ونحلم !

قالت كارلا فجأة:

" It doesn't matter when it's gonna rain, What's really matter

which ground you'll stand on when it does

ليس المهم متى تُمطر ، المهم نوع الأرض التي تقفين عليها حين تمطر"

ليلى " : اوه كارلا.. لمن هذه ؟"

كارلا : No One

ليلى : امم يعني الآن رسميا أنتِ شاعرة

قلت أنا : الرسمي الصادم أن يكون القصيم إنبثاقة شاعريتها

وضحكنا وإن لم يعجب ليلى تعليقي ، وعدت لسؤالها : كيف يكون نوع الأرض التي نقف عليها وقت المطر أهم بكثير من وقت المطر أو حصول المطر بالأصل ؟!

أكملت كارلا وكأنها عطشى لغريب تزفر له ما يؤرقها ومن ثم يختفي

كأنه لم يكن .. قالت : كنت واقفة بأرض زلقة حين مُطِرت الحب ،لم يكن فياني غريبا عني إنتقل الى السكن في الشقة المقابلة يقاسمنا ذات الطابق قبل أن أراه بعشر سنوات سمينة ومتخمة باللقاءات والسهرات العائلية بين أسرتينا ،كان يتيم الأب من عمر الثانية ،مرت هذه السنوات ولم أراه فعلا أو حتى الحظه كاليوم الذي بزق هذا الحب لنا فرأيته ،لطالما كان هادئا وقلما منحتنا تلك اللقاءات حديثا يصمد لدقائق فلا بد من شخص أو ظرف قافز يلتقط حديثنا ويهرب به فأعتدنا ذلك حتى بتنا لا نحاول خلق ذلك الحديث أو حتى نتكلف البحث عنه!

في مساء ما زلت أراهن على نسيانه ،سمعت عظم ساقي يتضامن مع قلبي ويتلوه بالإنكسار لم أكن أحب بهاري قد أكون متعلقة به أو إعتدت رفقته ، عرفته في أيامي الأولى بالجامعة كان مساعد أستاذ ومن ثم أستاذ مستقل ، التقى بأسرتي مرتين ربما ثلاث قد يكون لا يراني إلا صديقة وكنت أظنّه كذلك أيضا حتى ذلك المساء الذي أرغمني به على دسّ قدماي داخل حذاء التزلج الملغوم والتقدم به نحو صالة ملساء تحتاج الى مداهنة ومسايرة أفتقدهما ولكن أقنعني أنني سأشكره حالما أحلق وأجرب الانزلاق المفتعل والمخُتار كما يصفه ويتابع بإقناعي بأن خوف السقوط في الدقيقة الأولى التي تنزلق فيها يصبح نشوة حين تتحكم به وتحوله لمتعة وتتمادى به ،يقول أن التزلج سيتحكم بقدرتي على التفكير حين أقع في مشكلة وسيرتب قراراتي في أحلكها ،لن يشل الخوف عقلي بل سيكون مرنا كساقّي فكما تقرر متى توقف إنزلاقك حين تنطلق ستوقف الخوف وتنطلق بحثا عن حل كل عقدة في يومك الأسود لا قدر الله وينطق الأخيرة ضاحكا ..! بعد كل هذه المحاضرة وثقت به وقررت التزلج بشرط أن يمسك بي ولا يفلت يدي حتى لتدريبي فوافق وحالما دخلنا وبنصف الصالة رأى صديقة قديمة لم يرها منذ مدة طويلة كما فهمت من تمتمته قبل أن ينزلق بعيدا ناحيتها وما بين صدمتي وفزعي سمعت إنكسارين متواترين أفقداني توازني و وهباني للأرض بسرعة لتفلت مني صرخة صغيرة مقضومة لئلا يهوي كبريائي كما فعلت إلا أنه فات الأوان وهوى!

لما تأذى قلبي حينما أفلت يدي بتلك الصالة ؟

هل أحبه أم كنت على شفا ؟

حاول الإتصال بي ولم أجبه فأرسل رسالة إعتذار لم يتلقى ردا عليها حتى الآن، تلك الفترة هي التي رأيت فيها فياني فقد اتخذ بيتنا محرابا عكف فيه مدة جبر كسري ،فبعد خروجه من عمله يتناول غدائه مع والدته ومن ثم يغفو قليلا ليصحو مبتهجا فهذه أفضل أيامه وكأن دعوات الآحاد التي لم يفوتها يوما أُجيبت، قرأ لي عن الأهرامات والالبيرو وأن الإنسان أقل جدا من أن يشيدها ،أجادله فأقتنع بمنطق تساؤلاته فلا يعني أننا لانملك أجوبة أن طرحها خطيئة أو ضرب جنون ،وحدثني عن المجرات وأننا نسكن واحدة فقط فهل يعقل أن تكون الأخرى بكواكبها وتعاقب ليلها ونهارها شاغرة وغير مأهولة ؟ تلك اللحظة آمنت بفوكو حينما قال الجامعة تقتل الحس الإبداعي للإنسان ففياني لم يحضر كلاسا واحدا وها هو يفتق العتمة من عيني ويمرر لي ضوءا لأفكر بتلك المخلوقات فربما أتت يوما في زيارة إعماريه كواجب جيرة لمخلوق بدائي جاهل ،فلا يخلق الله الأشياء عبثا فكيف بالمجرات ! كثيرون يرثون هذه الهواجس لم يكن محدثا ولكن أحببت إيمانه بما وراء المعقول والمسطور .. جاراني ايضاً في مشاهدة برنامج واقعي سخيف ، تحدثنا كثيرا، إقتربنا من فهم بعضنا وكأننا نستكشف ذلك منبهرين رغم قربه كل هذه السنين من حياتي إلا أنه بعيد جدا بأفكاره و أرائه ، غنجني تلك الأيام ، فاض بي إهتمامه حتى صرت أنتظر حضوره ، والدي يحبه ويحترمه ويثق به فبارك إعتكافه وحين خضع قلبي في لحظة نبض نافرة لأعلى خشع فيها فياني وأخبرني أنه أحبني في اليوم الأول من إنتقالهم حينما إعترضته في منتصف السلم أعرض عليه المساعدة في نقل حاجياته فناولني حوض السمك الصغير خاصته الذي سرعان ما أسقطته و بينما أنا أحاول إنقاذ سمكته المشاغبة دستها بقدمي فزدت الأمر سوءا فما كان مني إلا أن أهرب منه إثر حرجي ،دهشت من تذكره لهذه الحادثة فقد مر زمن طويل وحقيقة دهشتي هو عمر الحب داخله ..

كيف احتفظ كل هذه السنوات بالحب وراهن بالصدف لكي يعترف به ؟!

تزوجنا كان احتفالا صغيرا و دافئا أو تراءى لي ذلك لم يعد اليقين ثابتا في عقلي فتلك الليلة التي يفترض فيها أن نمارس الحمى لنمرض ونشفى ببعضنا مرة تلو مرة لم تكن إلا طقسا باردا تناوله على عجل وضرورة وكأن مناديا ينادي للحب في كل زاوية من البيت إلا هذا الفراش الفاتر ، أحب عيناه حتى حين يقبلني وهما خاويتان وارى ذلك لأنه لا يُهزم بالقبلات فيغلقهما !

أحبه وأكره التفاوت فيه فكيف يغرق بي كل دقيقة إلا تلك الدقيقة التي يطفو بها فوقي بكسل ؟!

متفاوت بقدر الحياة والموت فلو لم يلبسني هذا الخاتم لظللت لا أعرف منه إلا الحياة و لكن حتى بهذه أجدني أتعلم منه فالفرح بهذا الخاتم كمطرقة تغرزك بطرقة واحدة في حياة يجدر بك أن تعيشيها كما تجديها إما حياة الموت أو حياة الحياة التي تعتقد كل فتاة أنها ستحظى بها ولا يعلمن أنهن محظوظات إن بقين أحياء بعد هذا الخاتم فكثيرات يدفعن حق الأنفاس ليصارعن حياة الموت ، ومع ذلك أنا أحبه وأخشى أن يأتي يوم وأتجرد من كل شيء ولا يبقى بي إلا ذلك الحيوان الثائر الذي يجرح حبيبا من أجل الجوع!

قلت: ولكنه حقك.. كوني حيوانا ناطقا خارج الغرفة وحدثيه بما تريدين.. إلا إذا كان يعاني..

قاطعتها كارلا: " لا لا .. لا يعاني "

ليلى : الحب ديناصور في هذه الأيام وأنتِ تحبينه.. اليس كذلك ؟

أنا : " الحب حياة وأنا متأكدة أنها تسجيل غياب في هذا الحديث يا ليلى.. "فاهمين الحب غلط أنتم".. الحب حياة الحب يقظه الحب شبع، الحب كل شيء إلا أنه يكون حاضر وحيّ في مكان وغائب وميت في مكان آخر "

ليلى : النقص فيه لا يعني أن نلغيه تماما ولا نقبل به إلا كاملا ؟ اليس هذا شعورك يا كارلا ؟

كارلا : أنا تأخرت..

وكان هاتفها يرن في تلك اللحظة وكأنه يفهمها حتى بغيابه.. علم أنها أرادت أن تنهي الحديث فحضر!

قالت ليلى بعد عودتها من توديع كارلا على الباب الخارجي : مسكينة

قلت : الآن عرفت سر القبلات الغائبة في الأفلام الهندية "طلعوا ثلج يا حرام"

ليلى ضاحكة :يا شريرة قولي إنك ميتة على قبلاتهم المستورة وليست الغائبة

_ فيه فرق ؟ طالما أن النكتة والطرافة حتى في هذه اللحظات من الفيلم فهذا يعني أنهم يفوتون عليهم الكثير والكثير وهذا اللي أشعرنا بسخافة بوليوود !

ليلى : اووه .. أفهم الآن أن القبلة الغائبة هي سبب سخافة بوليوود ؟!

_ لا طبعا ، بس الزيادة كالنقصان و أرى أن كثرة البراءة تصنع منك أهبل ومتأخر

ليلى : تعنين بريء ؟

_ لا التجاهل بعنوة لفطرة رغم الالحاح بالحاجة لها يعتبر أنانية وتخلف ،ألم تسمعيها تصف نفسها بالحيوان إن هي طالبت بحقها ؟ لو كانت أي شيء غير أنها أستاذة جامعية سأقول متخلفة لكن تصنيفها هذا بعيد عن العلم والمنطق

قاطعتني ليلى : لأنها تحبه هذا هو التفسير فقط فرأت أنها تلمس قداسة الحب إن هي رفعت من أمر هذه التفاهة

صدحت نغمة الرسائل لهاتف ليلى وكانت الساعة الواحدة ليلا حينها !

سابقتها إليه وأنا أردد تفاهة أجل وكدنا نوقعه من الضحك..

"تحيَّات يرُحن و يغتدينا

على نجد وساكن أرض نجد"

كانت رسالة نصية!

قلت : يقولون الشيطان لا مكان له على مقعد تشغله فتاتان ولكن الرجل يحوز على المنتصف .. اممم أعتقد أنهم محقون

ليلى : إنها الأولى والله العظيم .. يمكنك رؤية أنها بلا اسم والرقم غير مسجل

قلت وأنا أضحك : أعلم و إنتبهت من فتح الرقم أنه من الكويت .. رأيتك مصدومة فأحببت أن ازيدها عليك .. لكن كيف توصل لرقمك ؟ الم يكن مداه تلك الرسالة الخاصة بتويتر! ؟

توقفت عن مراوحتها المألوفة حينما تقلق وجلست جانبي ناصبة ظهرها أكثر قليلا من العادة وأعادت فتح الرسالة لتكتب : لا أهلا ولا سهلا لتحايا تنسّل تحت جنح الليل ويحملها مالا يُسمح لك باستخدامه .

قرأت ولم أفهم إلا أنها غاضبة فهذا سقف عالي بالنسبة إليها مادامت ردت التحية و بالدقيقة الأولى أخبرتني بينما هي تكتب رسالتها تلك أنه أستخدم بياناتها في الصحيفة لمعرفة رقمها .. وكانت هذه الجرأة وقاحة في نظرها ، اتى رده سريعاً : "آسف و للتحايا أن تقف فرادى على عتبة بابك حتى يتنفس الصبح لتدلف .. وكل الأشياء الأخرى لن أعتذر عنها فإن لم أفعلها اليوم حتما فاعلها غداً .. كوني بخير" .

قلت بخدر : آه آه..

ليلى : بلا عبط !

قلت بعدما شعرت بأنها هدأت بل وأكثر : ومن لا يكون أوّاها بعد هذا الكلام ؟

حقيقة و لسن فقط نحن النساء نكن بحال وسرعان مانكن بآخر بل البشر أجمع يحتاجون هذه الشعرة الفاصلة من التفهم والذكاء والروح المُحبة المغموسة في كل حرف حتى تنتشلهم من حال لحال نقيض تماما ومنتهى اليسر!

يا لهذه الشعرة اللينة الغائبة عن معظمهم .. فلتكن بيضاء ،صفراء ، لنتذكرها حين تندلع الحروب اللفظية بيننا أو ندوس على أرض الغير عنوة أو بغير .. نتذكرها فنلوح بها ليهدأ وتنتهي الأمور بسلام .. كم نحن مسرفين بكل شيء إلا الذكاء وممارسته بغرض السلام فهو يمارس بأغراض أخرى بالطبع.. كثيرة

إنتهت تلك الليلة بنبض أول لقلب صديقتي.

(3)

حينما إنسّلت ليلى لرؤيته أمام باب الفندق على الطرف الشمالي منه قريب من آلة الصرافة تحديداً كما أرسل لها برسالة نصية تجاهلت ما قبلها ولم تستطع تجاهل الأخيرة فقد ختمها بوعيد مبطن أنه سيطلب هذا في المرة القادمة عن طريق موظف الإستقبال ، وتعلم يقينا أنه لن يفعل ولكن علمت أنه لا مناص من قول آمين..

كانت هند تشتعل فضولاً لمعرفة السبب الحقيقي للحاق ليلى بنا فعلى مضض غصت بالسبب اللا كافي الذي أخبرتها ليلى به ، "حتى لو إنشغلت عليكِ تستطيع الإطمئنان بالهاتف.. اليس كذلك ؟ "

تجاهلتها .. فعادت إلى لهوها

حين إنضّمت ليلى لطاولتنا وبعد مسايرتها قليلا للقطات هند التصويرية .. أخبرتني أن طلال هنا ولكن لم نستطيع بسط الحديث أكثر وهند معنا لذلك خبئناه حتى نكون لوحدنا..

وقتها أرتفع صوت المؤذن مناديا لصلاة العشاء فغادرتنا هند على عجل سبق عجلتها تلك إستغفار وحوقلة وقبض على سبب اللا توفيق الذي أنا فيه فكيف بي أسمع المنادي ولا أجيب !!

وكأن الله أوكلهم سطوراً خاليه ليملؤوها تعليلات وبحث فيما كان ولما كان من عبيده فيقبضوا عليها ويشيعوا أمرها ليصبح أمرها قضيا مقضيا في أعرافهم ، هند لا تثير حفيظتي فقد علمتها عن ظهر قلب ونقاشها جدل لا يفضي إلى شيء ، لذلك وغالبا لا أسمع ترهاتها حين تبدأ بزجهم، فبي من تعب اليوم ما يجعلني لا أنفك عن عناق سريري ولكن حضور ليلى حتم أمر فضّ العناق ذاك

جاوبتها ليلى أننا مرهقتان من طقوس العمرة وحضرنا كل صلوات اليوم جمعا فلا بأس بالعشاء أن تكون بعد قليل ولكن كانت محاولة عبثية لا تتوب ليلى عن تكرارها فلطالما قلت تظاهري بالصمم حين ينفتح فاها لهند فهو كالمؤقت بلا روح يدق بعدد محدد ليرتفع عليك درجة حين يكرر بتعالي القابض على الدين الا هل بلغت اللهم فأشهد كختام وتتمة واجب بلا أي رغبة حقيقية بتسّلمك لذلك البلاغ !

إسترخينا وكأن الأرض فكت حزام خاصرتها لتتمدد وتزفر الضيق وكأن بصديقتي تكتم زفرة ايضا فقلت لها هاتي ما عندك ولأحمل تلك الزفرة التي أتت بها من بعيد وفي وقت تعلم أني متعبة ولا طاقة لي لحمل نفسي فكيف بآخر ؟

ولأن هذا الآخر ليلى كان لزاما أن أقصي نفسي لنفسي الأخرى ، لتلك التي إستحكم الخجل والعيب منها فكانت على غير طبيعتها ، هي على طبيعتها الأخرى التي لا يعرفها غيري فهي الآن متحاملة على نفسها ودافعة بالوقت والمفروض وكل تلك البنود الموقعة في عقود الأخوة والأصدقاء التي تدين بها لي بأن تكون أذنا بلا قاع لكل الكلام المعقول واللامعقول مني ، أن تكن أرضا تتلقفني بلا دوي حين أنهار ..بحنو وصبر في حال كنت ثقيلة وأن تكون قاضيا بلا ضمير يسمع لي فقط ويحكم ضد العالم كله بلا براهين لصالحي ، أن تربت علي قلبي المنزوي وتلملم أقشاش العش المخروب داخله ، أرادت أن تقول شيئا عن عصفوره لئلا أشعر أنها لامبالية بي .. فسبقتها إلى ما جاء بها إلي فلا عقود بهذه الحياة من نسخة واحدة فهناك خاصتي يا صديقتي ، بنود تحتم علي أن أنهض حين أشعر بحاجتك التي تواريها عني فليس ذنبك أن تكالب الوقت علينا وفتح درجان يضمر بهما الضد لنا فدرج فرحك لن نستمهله لحين إغلاق درجي الكئيب فلا نعلم هل للوجع إن حل بنا يوما من رحيل .. فلنوارب الوجع الآن ولتفتحي كلا كفيك للفرح .. إفرحي بلا تبرير أرجوك

تكلمنا كثيرا ولا طعم يفوق طعم الكلام المسروق على عجل ولا وقت أقل من وقت ترجوه أن يطول ولا يفعل كانت قرابة الساعة فالمكان إبتدأ يكتظ بالناس هممنا بالصعود بعد إن إتفقنا أن تلتقيه على الإفطار في صباح الغد وعلى هذه الطاولة الجميلة ولو لدقائق.

أرادت ليلى أن تختبر حقيقة شعورها لم يكن طلال هو صاحب هذه الفكرة بل لم يحرص عليها مؤكدا أنه يثق بمشاعره فكل ما كان يريده ضوءا أخضر ليتقدم لها رسميا وكانت هي وجله ومترددة بل مرعوبة

لن تتجرأ أن تضعه أمام إخوتها يوسف ومحمد وصالح وعبدالله وإبراهيم وتقامر بإحترامها وحريتها التي ستكون على شفا غور عميق في حال خسارة الحرب إن أرادوها كذلك ضد هذا الطابور العريض معنويا وحرفيا بلا يقين أنه يستحق المحاولة وجدير بضرائب كلا الإحتمالين لذلك كانت مُصّرة على لقائه ولو للحظات قبل أن يدار الفتيل ويُشعل .. لم أعترض أو أثبط الطبول التي تدق داخلها وأكاد أسمع قرعها حاولت الرقص على إيقاعاتها وإن لم أشتهي وكنت سعيدة لسعادتها رغم أن قلبي يحتضن أقدامه يخبئها عني متشنج لا يريد الفكاك ولا التناسي نتشاجر في لحظة خاطفة تؤلمه ليصدر صوتا يشبه الفرح فبينه وبين البكاء أنا.

كان المصعد أخاذاً لقّاظا فقررنا أن نعرج على صيدلية على جانب المبنى أريد بعض المسكنات والأهم الملون لشعري رغم أن ليلى تتحسر على الأشقر وواقعة في غرامه وكنت صمّاء

أتت هند ونحن في أول الخدر فقد نام الكلام قبلنا و إنتهت تلك الليلة الطويلة على صوت الفجر المذهل كان سقاية لكل العروق بالنشاط بشكل سريع ومرضي ، في مكه وبجانب هذا الصوت الروحاني تجد حقيقة وجودك

فكل المتفاقم من أمورنا يتضاءل ولا تعلم كيف ولما الروح المتضخمة أهملت كل تلك الأشياء و تبلدت ..أو هي رضيت ؟ أم هي الزحمة والدوران السريع للحياة ..دائرة رغم أنف التوقف داخلنا.

كان الصوت قريبا جدا حد التكفل بإيقاظنا جميعا تجهزنا على عجل كإتفاق معلوم ولكن غير معلن على إستحالة تفويت ولادة الصُبح وجس نبضته الأولى بعد أن نصلي الفجر فلو كنت ذا حظ عظيم ستتنعم بهذه الركعتين كل يوم من حياتك ليس كزائر تسرقه التلاهي ولا يدرك كم هو تواق إلى هذه السكينة والروحانية حتى يقع فيهما بعد تكلف فيتمنى أن تلهو الحياة عنه ليغدو التكلف طبيعة تنحت له حياة أخرى ،حياة داخل البوصلة ذاتها لا ينسل إليك تيه ولا تموه الخطوط ببعضها ، ولا خيوط تحيك الرغبات الأولى بك وتلكزك للذكرى أن آتني بحمل جديد أخبئه، فتبقى دؤوبا تسعى لتلقمها ولا تشبع ..وتنسى .. تنسى تماما شعور الخفة ، شعور اللا غاية ،شعور اللا شعور فظهرك نما لأعلى وبات ثقيلا ..لتنسى أنك نسيت شكل السماء

أبواب الحرم المذّهبة تنفخ بشكل سري بخورا يتشكل ليكتب لك حييت أهلاً تشعر أنها خاصه بك لك وحدك ولا تثرثر متحققة منك ،من أنت وما مثقالك و لون حياتك ؟؟ أم أنا فقط أشعر بذلك ؟

لم نسبق الزحام رغم أننا حسبنا ذلك فهذه الأبواب التي لا توصد أبدا إنفرط عليها ألوان من البشر في دقائق من كل البنايات ومن بطون السيارات الصفراء الصغيرة أعلى المنعطفات وهناك المنبثقين من سلالم أرضية ايضا ، لينتظم العقد المفرط قبل لحظات في صفوف تهادنت فيها كل الألوان والأثقال ..

لحظات فقط ويعود كل شيء كما كان .. منفرطاً متلونا !!

عرجنا على بن داوود لنعود بمئة كيس من الشوكولاتة والشيبس بعد أن سلبنا التعب ليلة أمس شهيتنا تماما ، كانت هند باستقبالنا لتخبرنا بضيق أن والداي خرجا لجدة وسيعودان مساءا مؤمنة أني سأشاركها الحنق والغضب كعادتنا إزاء طقوسهما النرجسية ،ولكن حقيقة كان ذلك من فضل ربي، إرتحت لسماعي ذلك و ليلى متصنّمة جانبي تخبئ قفزة وصرخة ايضا فهي قلقه كيف تتم الأمر وتلتقي بطلال في بهو الفندق وهما موجودان فبنينا خطة تعتمد عليّ لأراقبهما اما الآن.. فيمكنني النوم حتى عودتها .. ومع ذلك مرت ساعتان ولم تستطع ليلى أن تفكر بشيء غير ماذا ستقول له وماذا لو رآهما أحد !

وبعد دفع ليلى المتثاقلة خلف الباب راودتني هذه البيضاء المكتنزة على رأس السرير لحضنها فقفزت لأحتضن مسرفة الإغراء وأسلمتها وجهي وبضع أشياء مني وغصت بها ،

هذه الغمائم مجنونة وجذله كيف ترقص وتتمايل بلا وقار أو خجل تتعانق وتتشابك خيوطها البيضاء فتلتف أحدها على الأخرى بدورة كاملة تنقر خطواتها نقراً لتقف فجأة وتعقف ظهرها لأسفل فتلتف مجموعة غمائم أخرى وتتلقفها كيلا تتأذى !

خشيت أن أسقط فتشبثت بغمامتي المنزوية مع كثيرات نرقب المشهد مشدوهين حتى دلقت واحدة جانبي نثرها و فجأة بلحظه كانت وبلحظة أخرى لم تعد هنا .. رحلت قبل أن يسعفها الوقت بغمامة لطيفة تدعوها للرقص والفرح والجنون.. !

من بعيد لمحت ملامح في فضاء الفَرحين هناك بركن أخضر تتكئ غمائم جميلة ترقبنا بهدوء وحُب وأسى ، كنت متيقنة أني لمحتها ولا أراها الآن حاولت البحث فنقضت كل ما تقع عليه يداي وآلمني أنها تعود مفتولة كما كانت أردت مناداتها إن سمعتني سُتلّبي النداء حاولت ولم أستطع حاولت أكثر إهتزت غمامتي فخرقتها لأهوي بقاع يسحبني و مازلت متشبثة ، مازلت أقاوم أريد العودة إليها أرجوكم ولو للحظة !

-صبا ، مستيقظة؟

هند على جانب السرير تفاوض على رفع غطائي تنبهت قلقة وقلبي يرجف حنينا فهل رأيت أمي لولوة حقا؟

سألت هند إن كنت أصرخ فنفت ذلك وآمنت أن صوتي كما الحلم لم يكن قويا كفاية لُيسمع أحداً..

إستويت على السرير لأعرف سبب إيقاظها لي بعد اقل من ساعه لنومي فقط ؟!

ـ قالت : وين ليلى ؟

تظاهرت باللامبالاة و شيء من دهشة وسألت : لماذا؟

-رأيتها تحت مع رجل غريب !

_ أنتِ كنتي نائمة ؟ اليس كذلك ؟ "قلت"

_" قلقت قلت أنزل الحرم وتفاجأت فيها أمام الله وخلقه عيني عينك جالسه مع واحد "

لم نكن نريد هند أن تعلم بشيء لكن ليلى تبتّلت طوال حياتها ولم يشار إليها وحين خرجت عن النص لأول مرة

كانت هند بالمرصاد يا لسوء حظك يا صديقتي المسكينة

قلت لها : موضوع طويل أشرحه لك في وقت آخر

ثارت هند وبدأت بقيء كل كراهية والدتي لوالدة ليلى بنفس النسق والنمط من أنهم لا يتذكروننا إلا لحاجة وتلك التي تمثل الشرف والتربية الفاضلة لبناتها اللاتي لا يطلب وصلهن إلا علية القوم وأكابرهم في المدينة ها هي إبنتها وبجانب الحرم تقابل الرجال!!

قلت بعد صبر محاولةً قصر الموضوع خوفا على مشاعر ليلى ومن تشعبه لو وصل الى أمي : ألم تقولي قبل قليل أنها مع رجل غريب ولكن أمام الله وخلقه ، اليس كذلك يا هند ؟

هند :ما فهمت يعني ناقص يجون هنا بالغرفة ؟؟

قلت :لو كانت ليلى تنوي الخطيئة واللا مشروع يا هند لما كان لقائهم بالنور ، أهدأي وتذكري أنها ليلى ابنة عمنا التي لطالما كانت إلى جانبك وجانبي .. هل تستحق أن يعلم إخوتها بالأمر وتدلقي بنفسك باب الويلات عليها ؟

هل تستطيعي يا هند ؟؟

_ إذا بالحرام أنا لا أعرف أختا وأخ

_ حرام أيش ؟ أتريدين أن نفتح باب الحلال والحرام ؟

تعلمين يا هند أن ليلى لم تقترب للحرام وإن فعلتها هذه الآن خارجة عن النص نعم ولكن ليس الحرام أليس الذي تشيرين إليه يحتاج أربعة شهود يثبتوا إن ولج أم لم يفعل ؟ أتريدين أن نشرّع باب النقض الذي نقضته ليلى اهو حرام أم خارج العادة فقط ؟؟

بدأت تحوقل وتستغفر وتتعوذ من تفكيري وما أقول ، وكنت أعلم أنها بداية اقتناع منها تقاومها لئلا تهدم الصورة المقررة لها من المجتمع ومن صالح زوجها الذي يريد منها كل ما تفعله الآن

دلفت ليلى خائفة وجلة فنهضت هند أولتنا ظهرها مغادرة للغرفة الأخرى

غمزت لصديقتي لأطمئنها .. أشرت إليها بيدي أن فيما بعد..

أملت رأسي لغرفة هند أسألها إن كانت ستعود للحرم ولم تجبني بزعم أنها غير راضية للآن

توضأت ولبست عباءتي وتوجهت للحرم مشتاقة متحمسة بطاقة تتنفس منها كل مساماتي خفيفة الخطى وكأني معلقة ببالون لا تكاد خطواتي تمس الأرض ، أردت أن أخذ سِبعا لها ،أريدها أن تتفاخر حيثما هي متكئة الآن أن طاعاتها مازالت رغم صعودها تُكتب لها ، اشتقت يا يمّه اشتقت !

حال وصولنا أصرت هند أن نأخذ الطريق إلى بيتها وكان ذلك إذ بدا أنها على شفا الصبر أما ليلى فقد قضت ليلتها الأولى بعد تعب الطريق بمنزلنا وغادرت بعد استيقاظها على هاتف والدتها العنيد لتخبرها بوصول أخيها عند الباب ، حاولت وصل أجفاني مراراً ولكن بات أمراً مرهقاً لذلك نهضت لحجز موعد مساج ينفض الرهق من كتفاي فسألقي هذا الجسد المنهك بذمة متطرفة نحيلة تغرس مخالبها المدببة فيه تعالج سكونه وغبائه لتعصره عسى أن يتدفق منه وجعا وخيبة طال اختمارهما داخله حتى تماديا به عثيا ووهنا.. لعلهما يندلقان!

بعد عودتي أول المساء هاتفت هند ولم تجب ، أردت السؤال عن حالها فلم تكن خالية السريرة من أيام مضت لاحظت انزعاجها وتواكلها على أمر ما لم ترد البوح به ولن يكون موضوعا بعيدا عن صالح فلا يؤرق ويشغل أختي شيء بهذا القدر غير هذا المفتعل .. كتبت لها رسالة قصيرة أنشدها طمأنينة و إتصالا حالما تستطيع.

والداي بالمنزل حاولت أن أستعيد رسم عاداتي بالإنضمام إليهما في التسّمر أمام التلفزيون تبادلنا رؤوس أشياء إن كان ممكنا لنسمها حديثا باهتا ، عدت لتقليب هاتفي أمارس لعبة الإلهاء المتداولة بوابة الخروج من الواقع المهلهل لبرامج متأنقة ومموهة كحفلة تنكرية تلقي بكل ما هو أنت وتأتي كما تحب أن تكون ، إلهاء آخر ايضا ، إنفتقت فقاعة هروبي بإتصال إنبثق به هاتفي فجأة، رؤية إسمه مزروعا بجانبه قلب أحمر يومض بين يدي لأول مره بعد ما كان ، أخرست الصوت بسرعة وهربت خارجا وكان صوت والدتي خلفي يخبرني أن خالتي أم فهد ترسل سلامها لي وكأن أمي تقول لي أنها سمعت دق الطبول داخلي وبركانا إستوى كدت أعتاد خموله وحرقته إندلع الآن ورمى بكل الهدن التي عقدناها .. هل كنت شفافة لينكشف أمري لأمي أم نبت لها الإحساس فجأة كما تنبت الأرض البور .. هل تنبت البور ؟ هل تطرح العاقر ؟ !لوهله خاطفة وقوية نالت أمي من رأسي لأعود متسمرة أنظر إلى فهد والقلب الأحمر وقد قيده الهاتف مكالمة فائتة

هل نحسم الأمر يا قلبي ويكن فهد فائتا ليس إلا ؟!

ذهبت لغرفة جدتي بلا نية تحملني هناك بلحظة كنت مندسة بسريرها الذي بات في ركنا قصيا عن قبالة الباب مهجورة صامتة وفائضة بالحب ليس الخوف الذي ذكرته هند حين سألتها عنها في سفري ، وكأن تلك الراحلة أوصت هذه الجدران أن تبقى دافئة ومحتويه

اتى إتصاله كصفعة تعيدني إليه ،هذا نمطه " قليلا من كل شيء وكثيرا مني يا صبا"

إعتاد أن يقولها بنبرة ساخرة وآمره في آن حتى أعاد ترتيب طاعاتي فكان فهد أول كل شيء

أول فكرة تناغيني حال صحوي حتى قبل أن يرخي جفناي عناقهما وكأنه هو من يتسلل ليوشوش لي زارعا نفسه بين المتعانقين ودالقا النور بينهما ليوقظني ويكن بكر ذاكرتي كل صباح !

حينها تجول يدي بين أغطيتي أتحسس هاتفي وأتفقد وارده وعيني تتربص اسمه متحالفة معي وتعلم أي الوارد أنشد وأريد ، بهذا كان ايضاً أول مهماتي اليومية.

حين أسمع منه صباح الخير النابضة حينا والناعسة حينا آخر من تحت أغطيته مرة ومن مكتبه بدوامه الباكر مرات تكن هندسة يومي وهويته إثر حديثنا أول الصحو ذاك!

بلا انتباهه مني كان صوته أول محاريب سمعي أخشع به وأتوق إليه متصوفة تقدس منعطفات حروفه ودهاليز تلك البحة الفاحشة بوقعها على قلبي ، إنساب مني الحذر والتشنج القديم إزاء الحب

لطالما كان قلبي نايا مهملا تقيم الرياح ولائمها به وتلاعب صغارها المتدلين من ثقب وقافزين لآخر حتى يئن قلبي وجعا فيتراقصون نشازا يسمع من حولي وكنت أظن معهم أنها أنا !

عرفت الحب منه وعلمت أن الحياة واسعة ومزدحمة بالجمال كما قالت جدتي ، ظننت كثيراً أننا في سيرك وأن مسارحنا لن تجدد عروضها ولم أكن بحماس لأحجز مقعدا وأشارك بالتصفيق البارد ، خرجت من تلك العروض وسئمت هز رأسي مسايرة الموتى والباردين إعتقدت أني هشه وزجاج كما يصبون في أذني حتى علمت أني قد أكون زجاجة ولكن كزجاجة تغريك بغرزها وحين تريد ذلك بها ترتد كرصاصة يفاجئها أن ليس كل لينا مخترقا وليست كل أنثى دلوا تستطيع أن تتناوله أو تبصق فيه متى أردت ، خرجت من ذاك القطيع المسالم و نئيت بنفسي جازمة أني لن القي بقناعاتي وعقلي بأقرب حاوية حين أحب أو أتزوج ورددت كثيرا تلك المطوية المنقوشة ببنود هويتي ، خفت كثيرا أن أصاب بذوبان الارتباط كالبقية حين يظهر بحياتهن رجل .. خفت كثيرا

وكان ذلك فرغم ما عصف بحياتي من تغييرات وبقلبي من تضخم لحب الحياة وكل الأشياء ، ذلك الحماس لكل الطقوس بشكل لم أعهده إلا أني كنت أعود لتشنجي حين ألمس منه محاولات إلغاء ولو كانت جسا بسيطا يريد به إختبار حبه فنبسط حديثا لا ينتهي أن حبك ليس ضدا لكوني أنا ، فكان يحبني أكثر فأحبه أكثر.

تلك المرة التي توقف العالم حابسا أنفاسه بيننا رافعا رأسه ناحيتك مشدوها بك مُعيدا تدوين التاريخ خاصتي ، تاريخ كل الأشياء التي عرفتها وتلك التي لم أعرفها إلا منك ومن خلالك ، تغيرت أشيائي تلونت وزانت وكأن سحرك فاض بي فغمر كل ما حولي . كل مرة أراك لا تكون عادةً أبدا بل كأنها تلك المرة الأولى ، ألقن نفسي بعضا من اللامبالاة و أدعوا الله أن ينظم أنفاسي حين ألقاك ، وما أن تقف أمامي بطولك المسرف وعطرك العابث بي

أكن أي شيء إلا صبا فلا أعرفني إلا بحالة اللا اكتراث اللا فوضى ثابته لا مبالية جافة عنيدة وبك مال غصني ، تنفسك القريب مني يقتلع كل ثباتي وكل ماكنتُ وأعرفُ عني !

دسستني في ذلك اللقاء الأول بحماس إلى قاع قلبك دفعت بي إلى هاوية عصفت بي رياحها وبدلت كل خططي فيما سأكون وكيف أكون مع آدم خاصتي يوما ، حين ارتطمت بذلك القاع الجاف الدافئ علمت أنه فارغ لم يُستوطن يوما وشهقت حبك لحظتها وليتني أزفرك يا فهد ليتكَ قرار أنوي الخلاص به منك أنثر رماده بيد ريح لا تُبقي منه حنينا أكره به نفسي بينما أنا أريد ن أكرهك أنت أريد حالة الرتابة قبل تلك الليلة أريد الفراغ الذي كان يجول في دمي أن يعود ، لما أنت بهذا الحجم يا فهد لما هذا البطش بي ؟!

رسمت خطة في طريق عودتي البارحة كنت طوال الطريق الهو بها وأبني كل ثغراتها فقررت أن أخرج كثيرا و أن لا تهدأ خطوتي حتى يتملكني التعب فلا يغلبني الليل بك ، أليس الحب ترفا لا يقوى على الكادحين تنهكهم الحياة فيختبئ عطفاً فلا يتكالب والشقاء عليهم لذلك كان قراري أن أنهك هذا الجسد لعل قلبي يخجل فيلملم نواحه لوقت آخر لا يثقل عليّ فيقصمني!

لا أعلم من قال أن الظهر يقصم ويُبدل الحال إلى حال ؟

فذاك القلب هو الآمر علينا والناهي هو المُغيّر بنا ولنا هو المُقرب والمنفر هو خدر للسعادة و الشقاء ، هو حياتك وموتك وإن تنفست بكلا الحالتين فتلك النبتة في ذاك الصوص تتنفس أيضا !

أكثر حديثنا وقعا على قلبي حين نصمت ونعجز عن التعبير وتعجز اللغة أن تساعدنا

سبحان من جعل يباسي ليّنا بحضرتك و وقار العجائز وثباتهن الذي طبعته من جدتي إلى تيه وخفة يحرضاني على الإنشغال بنفسي توبيخا ولوماً ، تنسل اللحظة تلو اللحظة معك وأنا أناضل كي لا أُهزم ، كي تعرف أني لست مجنونة بك وغارقة فيك أتنفس من ذات الرئتين معك ، تجولت في مدائنك كلها إنتقل من هذا لذاك إنصهرت وكنت أفاخر بأني الصلبة المضادة لكل خرافات الحب والعشق ، كيف غفلت خطتي هذه الثغرة التي القتني في زمهرير هذه الغرفة ، أين دفئها الذي كان ؟؟

روّض النوم تلك الرجفة الجامحة التي باغتتني فهاجت وماجت بي ،تدثر قلبي بجفني فلا أعلم كم مر على ذلك ساعة..إثنتان .. ثلاث.. لا يهم فكل مُناي أن ينصب النوم وتداً في أرضي يسكنني ويستعمر ساعاتي بقدر ما يرغب فهذه العقارب لئيمة معي بصحوي ، تلدغني ثانية بثانية!

تفقدت هاتفي سبب ما كان وما سيكون لأرى الوقت ودهشت كيف هذا الخدر المريح تلبسني في ساعتان فقط هذا الثقل الجاثي على جسدي زال وعادت الغرفة كما عهدتها جنة بأذرع أربعة مفتوحة ومُدلِلة وكأني قدمت إليها غيمة سمينة أعياها التدحرج في السماوات تخبئ ثقلها بجيوب الكبرياء المقوسة على جانبيها تنشد أرضا لا تتوجس منها شماتة إن ثرّت وجعها عليها .. أشعر بذلك .. أنا أخفّ كثيرا الآن

سكن كل شيء للحظة فقد دس لي من هذا الثقب رسالة واردة مرتكزة منتصف شاشة الهاتف المقفلة موقعة بإسمه فهدي يتشبث بحافة الياء قلب أحمر مازال قلبي يأبى تغيير الحال الذي كان إلى ما يكون الآن ، لم أقوى على جسّها هل تناسيت حظر رقمه وإلغاءه من هاتفي أم أني أضعف من هكذا حسم ؟ هل أريد بذلك الإيحاء له أني لم أوصد الباب تماما بل هو موارب فهلاّ أتيت بجاه لا ينقطع على مد النظر من صنوف التذلل والتوسل تخطب غفراني ؟ هل أردت أن أغفر وهل تغفر مثلي خطيئة فاضت بها الأسماع وذاع الجرم في وشوشات مجالس النساء الشُمّات والأحباب،

هل يليق بصبا أن تغفر مثل ذلك ، هل أتجاوز ماكنت أنهى أن يتجاوزن عنه ؟!

أنا عطشى لك وسأنقض قرار فض رسالتك المؤجل ليس أني أردت لفضولا أن يزول بل هي حاجتي للشرب،هل يتجاهل العطشان كأس الماء أمامه ؟

هل يؤجل إجتراعه وهو على شفا الموت حاجة له ؟!

نقرتها لأشرب وصلك ..

"صبا يا كُل العمر

الحمدلله على سلامتك وعُمرة مقبولة

كُنت لكِ حتى برهنتِ للعالم كله أني لست كما ظننت

وقعتُ في الجرف نعم ، ولكن أنتِ السماء والجنة

فأغفري لي زلتي ويعلم الله أني قاربت الدنس ولم أشتهيه فقد لاحت لي عيناك حينها

فأستغفرت خطيئتي ، إمنحيني طريقا إليك

دعيني أُكفّر عن إثمي وإن لم أرتكبه فقد أوشكت وأعلم أني آذيت قلبك لن أنسى عيناك

لن أغفر أبدا أني أخرجت نفسي من الجنة ، أنتِ النعيم يا صبا لكل الشقاء الذي عهدته

أنتِ أمي وأختي وكل أصدقائي وحلما لم يعتق كل ليالي عمري

كنت معها ظنا مني أني أعاقبك وأثأر لقلبي الذي أهملته ورميته بالجفاء

لم أعلم أني أهوي للجحيم ..

أحبك "

مازال يجرؤ على قول أحبك!! أي تبرير هذا وأي عبث ينوي بي ، متى رميتك بالجفاء أيعقل أن تكفر بي وتفلق قلبي لأني غفلت عنك قليلا ألم يخبروك أني زهدت الحياة كلها ففي لحظة كنت ألملم فيض الفرح والحب من عتبات روحي حذرا كيلا أصاب بالعين أردد تعويذة تلقنني إياها جدتي كلما حدثتها عنك أني تمكنت من الحياة أخيرا وأنك توفيق لا أصبر بُعده بَعد ، أحدثها عن رجولتك عن هيبتك عن حبك لي وتدليلك وكيف تملك الأنثى الدنيا وما عليها إن ملكت قلب رجل مثلك ، فترتل جمع دعوات لنا وتخفي دمعة فرح أن أخيرا اطمأنت وكأنها كانت تعلم أنها آزفة بعد هذا!

في ظهيرة لم أرى بعدها فيّا إلى ساعتي هذه وكانت تراك الفي لي من بعدها ، غفت يومها بعد تفويتي عادة إفطاري معها فقد كنت أجول من حديث لآخر معك قابضة على السعادة تحفّني حتى مكرت بي هذه الحياة من جديد والقتني في غيابة الفقد والحزن وبعدها نثرت الملح على جرح مفتوح بفعلتك ، ليس عنك بل عن كل شيء أغلقت نوافذي وباب حجرتي عن الجميع ، فقدت طعم الحياة طعم الحب الذي الهاني عن وداعها ، حتى الماء أصبح مراً لم أعلم كيف أصبح مراً ولما كنت تنورا سيحرق كل قريب غضبت من الوقت كيف جار علي وغضبت من أمي كيف لمزاجها أن يطاوعها فتتزين بعزائها كل هذه الزينة ؟ غضبت من أبي كيف تناول غدائه يومها غضبت من الحياة كيف تقتص ضرائبها مني ، لما كل هذه المنعطفات لما هذه الخيبات ، لما لا يأتي الفرح متنصلا من الوجع ، نضحك كثيرا ولا نرتل في سرنا أن أكفنا شر هذا الفرح ، أن أتمم علينا !

لما نصلي صلاة الخائفين في ذروة أفراحنا ؟ !غضبت من كل الأشياء وأبقيتك أنت جانبي على الرف يميني لم أنكس صورتك ولم أقترب ايضا لئلا أؤذيك ولكيلا تعلم أني أخبي داخلي تنورا ثائرا ومُرا حينها ، جنّبتك إنكساري وحزنت حزنا يليق بها ، لم أغفل عنك كنت النور لذاك السواد والأمل لذاك الحنق و اليأس.

نهضت من مكاني بلا نوايا ولا مشاريع أريق بها هذه الليلة الطويلة أردت فقط أن أهرب من هذه الضوضاء برأسي ، دفنت نفسي تحت ملاءات السرير أردت أن أسكن ليتوقف هذا الدوران ، حاولت أن أغمض عيناي عاقدة يداي أسفل صدري أزفر بتكلف فقد رأيت هذه الممارسة مرة وهاهم يعبثون معي ايضا أين الخفة التي سأشعر بها ؟ ومن ثم أدخل بنوم عميق يأخذني من هذه الورطة!

كان بيرل يفزع حين أتململ وأجرب زوايا السرير الأربع أبحث عن ألطفها لتتشكل مع منحنيات جسدي ولا فائدة كلها قاسية موجعه رغم لينها في ماضي قريب ! ويفزع أكثر ليتوثب نافخا ظهره حين ألج نوبة بكاء في منعطفات هذا السهاد كنت أراوغ هذا الليل ويهزمني ، أخذت النوم غصبا لتغيب تلك الرسالة من أمام عيناي و لئلا أعاود فتحها ألف مرة فيخدرني تبريره كقرص مسكن يناولني إياه هل أتغافل وأمرر هذه المرة هل ستكون مره يا فهد ؟

هل ستعتبر غفراني ضعفا وتسلبني حياتي حين يكون قرص المسكن علبة أقراص تودي بي ، هل تقبل وتغفر لي لو تبادلنا الأدوار ؟!

هل ستكابر أم ستمنحني فرصه ولا أتلاعب بك بعدها إن عرفت حجم حبي في قلبك لتغفر لي هذي الخطيئة ؟ لو كنت تنصت لأفكاري الآن لقتلتني اليس كذلك ؟ هل تشعر بقلبي حين يستمع لعقلي؟ عاد بيرل لتوسدي ولم يعد دمي دافئا كما عهده ليختبئ خلفي كل مرة ينعس بها ، تمطى ببلاهة وأبتعد عني يشعر بالفقد هذا القط السمين ايضا ففي الأشهر الأخيرة فقد الدلال الذي عهده وكميات الأكل التي تحرضني جدتي الرحيمة أن أضعها له رغم أني أقصي نصفها قبل أن تصل له فلم أرد إفساده وها هو الآن تدور عليه الدوائر ليفقد جلها ، اما الآن فأعتقد يا بيرل إن أتت السعادة فلنسرف بها ونستهلكها فلا نعلم متى تولينا ظهرها فيسقط حقنا فيما كدسناه منها حينها ، فلنسرف بلا حذر وبلا وجل وخوف يجعلنا نقتص منها لما بعد ، فلا نعلم هل يكون هناك بعَد ؟؟

تعسر مخاض هذا الصبح الم ينل الليل كفايته من النحيب ؟

(4)

بعض الأفعال حُمّى تأخذنا بلا تعقل نحو الحب أو الخطيئة أيا تكن كل ما تنتبهين له بعد حين أنه إثر إنفعال أو حاجة وقد يكون تهور الأهم أنه فعل لا يشبهك ، هي حُمّى واللهِ حُمّى ولنا حق الشفاء .. أليس كذلك! ؟

مارست البرود أياما طويلة حتى نبت فيني حقاً .. فيما مضى إعتقدت أن النحّات أفضل الفنانين فهو صارم بعكس كل الفنون الأخرى المطاطة التي تقرئك مرارا أن الحياة مرنه وبين نعم و لا ألف كلمة أفضل فتصدق ذلك لتنزلق في منحدر لولبي تصطدم في منعطفاته بألف حيرة وخيبة ودهشه وليست ذلك النوع من الدهشة التي يستنفر الفرح في روحك وينصب عرسا بكل منعطف في حياتك لتمضي الحياة جذلة خاطفة لا تُمل ، بل هي تلك الدهشة التي تفقدك السيطرة على غزو ليت ولو ولعل وعسى لحياتك وينتهي العمر وأنت معاتبا بائسا تدمن العواطف فتسقط مرارا في سبيلها من أي عابر يتصدق بأي شيء .. وقتا يسمع بؤسك وتذمرك به أو كلمة من طرف لسانه ينصرك بها لتعيش مبتهجا بهذه الكلمة وقتا ترمم بها حطامك كغريق يتعلق بقشة غاديه !

لذلك فالنحاتون لا يسمحون بنتوء أو ميل لا يكاد يُرى في أعمالهم بل يقررون ما يريدون فيعملون عليه بسكّين لا تتهاون كهون مقامري المرونة و غثاء ما بين نعم ولا . إن قبضَ على تيهك أقرأك بضع لا ..أهمها " لا تتعلق ببلورة العرافات وبكذبة قاع فنجانك ولا تلاحق طالعك ،تشتهي خدعة تتغذى عليها أملا يلفظك آخر اليوم محبطا من جديد"

هكذا ببساطة!

كل شبر من ذاكرتي مكتظ به وإن نبت البرود باسقا مُتراصا ،أشد الرحال الى تلك وذاك وإذ بها في كل مرة تحط بي عنده لا تغدو خطوة واحدة عنه ، لم يتلمس طريقي ثانية وذلك الوصل يتيما لم يزد عليه ..

فاوضت الأيام على تجاهله وفعلت ولكن تمر أيام صماء عن كل شيء عدا نحيب قلبي وكرامتي ، أردته وإن كابرت أن يجثو متعبدا ويكن بيتنا محرابه وقِبلته يتوب عن ردّته بلا تعليل ما كان من شر!

فليعود ولو صامتا وإن صددته فليعاود الكرة مرات أليست الأرواح جنود مجندة فأين جنودك عن النضال و الولاء؟ يقضم الغيظ من روحي فيغلبني الوهن ويشتد علي أكثره أول الصبح فأنهزم أمام رفع كومة ملاءات من القطن عن جسدي لأنهض يا فهد .. تخيل غي الحال بي !

هل رأيت مرضي بك ، تعلم أني شخص يعشق النور و لرئتي موعد أزلي في عناق شفتي الصباح تمتص أنفاسه الأولى لتّوفَ نصيبها من الطهر فكلما تقادم الصبح نال منه البشر وسلبوا حقك في تخيل هيئة يومك فإن فاتني أوله فاتني حق الأمل في كونه مختلفا وثقيلا بالخير والبشرى حين أكرر اللهم آتني خير هذ اليوم وخير ما فيه ، لطالما أحببت فسحة الرجاء الباكرة هذه.

إعتقدت أني في هذا الوقت بعد زواجي بأشهر قليلة سأكون غارقة بالمطبخ أطبق تلك الوصفات التي خصَصتُ لها جهاز لوحي كيلا تتشتت و توقعني في فوضى تعكر صفو الحب الذي لا يطيق روائح الطبخ ولا يحتمل مسئوليات خارج غرف النوم فهو مستقر هناك بين اللافندر والمسك وخشب الصندل ، أردت أن أكون امرأة خارقة كالأخطبوط super woman تنجز المفروض لتتنعم بالرضا حين يلتهم طبقا من عمل يديها وكأنه التهمه حبا بمن صنعه .. بينما هو لم يلتفت لثانية بمن صنع فهو جائع سيغني سيغني بطنه إن لم يكن طبقك جاهزا لا قدر الله بخيارات لا تنتهي من الأطباق باتصال صغير !

في ذلك الجهاز فيديوهات لجدتي تمليني وصفاتنا الشعبية وكنت أتظاهر بالكتابة بينما التشغيل يدور .. لا أعلم هل سيؤذيها هذا التسجيل إن أعدت مشاهدته ؟؟ لم يخطر لي أنها ستغادرنا بهذه السرعة قبل شهر واحد من موعد زفافي ، آمنت بعد هذا أن الخطط واهيه ينشق الموت ليبتلع أحد أركانها فينهار سقفها على رأسك تتمنى بكل جوارحك أن ينشق من جديد لتلقي بنفسك في فاهه ، وعبثا أن تتحقق المُنى فهو صارم لا يُنادي ولا يُنادى.. حينما ننساه يفتح فاهه لنتذكره

أما الآن فأنا أهذب قلبي أجتّره عاقدة حبلا متينا حوله وإن كان ثقيلا فأنا أنزهه ما بين مشاوير عشاء وقهوة في أماكن أعَدت استكشاف مدينتي من خلالها وكنت ألتقط صورا أينما أكون لطاولات مختلفة في غُرف مغلقة توطدت العلاقة بيني وبين حيطان متنوعة شكلا متوحدة غايةً كلما كنت في إنتظار البنات .. فهذه الجدران مغموسة بقصص لا تنتهي إختزلت صور وجوه لا تحصى وثقلت بوشوشات و فضفضات لو أُفشي بها لرجال القبيلة لهدموها على رؤوسهن الجميلة ، هذه الجدران وفيّة ومسكينة لو نبت لها قدمان سأضحك كثيرا ربما .. الأكيد أن أخلاقنا ستتهذب سراً يسبق علانية ، هيا إهربي دعينا نرى.

أليست غاوية فهد بنت ناس أفاضل محسوبة على الأدب والأخلاق ، ألم تتصيد ضيقةُ مني لتبيعه اهتماما تبغي منه هدم حياته مع أخرى آثرها عليها ، كيف للأنثى أن تحارب على قلب سُكن وطبع لغيرها!

هل ترضين الحرب في قضية خاسرة تتسللين من ثغر ضيق تتصيدين فريستك كحيوان غاب ، ولأنك أقل من أن تنقضّي بل تؤثرين أن تندسي بأي جحر كزاحف إن شعرت به مالكة المكان زلزلته وإن لم تبقى بعد ذلك ، غادرت قلبه نعم ونفضك هو حتى أوجعك كما سمعت، إخترتي أن تكوني زاحف ولا زاحف أبدا يتربع عرشا، لا أكرهك إنما أشفق عليك

كنا أربعة أنا وليلى وكارلا ورحاب صديقة لي من الجامعة جميلة وشفافة تحاول قدر ما أستطاعت نشل نفسها من مسئوليات الزوج والأمومة المبكرة التي غرقت بها لتحضر لقاءاتنا ، هذه الرحاب واحدة من قلة تمسكن بجوهر شخصيتهن فلم يموهها الزواج ويمسخ من طعمها ونكهتها التي عهدناها لتتحول لشخص عظيم همها أن تفتح سير الحمولة والزوج لتقدح بهم فالحمد لله لم تصب بهذا الداء وإلا ما حفِظت وصلها ، تأتي هند معنا أحيانا وخاصة إن ضمِنَت أن سماحة لن تأتي وفي حال إستطاعت سماحة إنهاء عملها باكرا ولحقت بنا متأخرة تكدرت وتعكر صفو جوها يفاجئننا بضربات بينهن من تحت الحزام فمرة نلطف الأمر ومرة نلّج بالضحك ونستمتع وإن كنا نقف إلى جانب سماحة غالب الوقت .. لم تحب هند سماحة يوما وإن سلمتها شعرها كثيراً تبقى تفضلها عن أن تغامر عند غيرها تبرر هند هذا بأنها لا ترتاح للؤمها ولا تثق بنقائها ولكم أن تتخيلوا مقاصد أختي !

رغم أن الجمال ليس ضرورات فلما هذه المصلحة وهي من مصالح الكماليات أباحت الممنوع ؟

لما اجاور من أطعن به حين يوليني ظهره ولما بالأصل أتعامل معه فضلا عن أني أبتسم له .. وهي كماليات ؟ أجيبي يا هند يا تقية؟

كيف ألقيتِ بظنونك في باحات الغير و استبحتِ حرمة الطعن سواء بتلميح أو جفاء في المعاملة ؟ تعتقدين أن سماحة لا تشعر بظنونك فيها .. أكان الظن يقينا؟ أم أُعلمنا غيبا إنطلق لساننا حكما به على الآخر.. ؟

إن لم تشهد عيني يقينا فلما الخيال خصب غني بالسوء إن لم يوافقني الآخر بيئة وطبعا و إسلوبا ؟!

سماحة قريبة مني عرفتها أول قدومها مدينتنا لتعمل في صالون تجميل اعتدت قضاء أموري به فصاحبته قريبة والدتي ولهذا السبب تحديدا أصبحت خطوتي خفيفة عليه أكن برفقتها وأتأخر مرات حتى تنتهي ساعات عملها لنخرج للعشاء ، أشاهدها تعمل بينما أقرأ من هاتفي أو أُقلبه ناشدة مُلهي من برامج وألعاب يغترف مني وقتا فائضا ،حينما لا يكون تحت يديها أحد تدعوني لأملأ الكرسي الفارغ ولو سمحت لها لأجتّزت نصف شعري أو جُلّه فبزعمها وكما تقولها " أني حمالة أسيه شو بدك بشعر طويل وأجعد لخاصرتك يقصف رقبتك وعمرك وانتي بتعتني فيه "

ولأن فهد مازال هناك وإن أنهكت نفسي التهي عنه ولا يجدي فكنت أرفض أن تمسه وإن سمحت لها بتشذيب أطرافه وتدليله بماسكات وملطفات ليس أكثر.. حينما تنده سماحة قائلة " تعي لغنجك ليعرف شو ضيّع" لم أكن أنهاها أو أعترض وكأن هناك خدشا في كرامة تلك الأنثى بداخلي وإن كابرت بالتصريح ، ترمي الصدفة بصاحبة الصالون فألتقيها وأنا تحت قناع طيني عالق على وجهي أو قناع النعناع الأخضر التي زعمت سماحة أنه يعزم الدم إلى وجهي لينفث الصفرة الساكنة فيه كل هذا يلقيها في حيرة هل عدت لزوجي؟ فهي ليست بذاك الوصل مع أمي لتلتقط أخبارنا حال حدوثها ، أشعر بسؤالها يتقافز بين أسئلتها لي عن الحال والأهل فتجاهد كي تطبق فمها عليه كيلا يقفز علي فيؤذيني إن كان الحال كما هو عليه ، وكنت أراقبها كل مرة في هذه الحيرة حينما تراني فتفلت مني ضحكة حينما تغمز لي سماحة فور مغادرتها ، وهل ألوم هذه المرأة الطيبة ؟

فهي مأخوذة لا تعلم ما هذا العبث إن كنت طرية الجرح فلما هذا الإفتعال ؟!

سقطتُ في خندق اللا ثقة ، تتعثر به كل من تسممت بالخيانة بلا وعي منا ندس هذا الصوت الموجع الذي يكرر هل أنا السبب ؟ هل وهل وهل .. كم لا ينتهي من هل ولماذا ؟ يعود بنا لسؤال أول مسنن وموجع .. هل أنا السبب؟

فنراوح حوله نتخضب النزف ونستهلك أدوات الزينة المقاومة للماء صنعوها تقاوم الماء وها نحن نستهلكها لنقاوم الدمع !!

فلا نعلم متى تفر دمعة وأين .. نختنق بلا صوت .. بلا صراخ لا يليق بكرامتنا .. لا يليق بكبريائنا .. نختنق بكامل زينتنا حتى نضمن أن تتقوس أصابع الإتهام ناحيتهم .. فيُتهمون بخسارتنا .. بفشلهم .. بغبائهم

وتندهشي حين لا تجدي إصبعا واحداً رغم كل ذلك الذي كابدتي عناءا من أجله يشير إليه بل كل الأصابع متفقة أنك السبب وإن لم يكن ظاهرا وجليّا بك ولهم فلا بد أن هناك تقصير في أمر ما

فالرجال لا ينظرون للخارج بلا سبب ، هل ستصرخين الآن ؟ هل ستتوسدين الخندق كل العمر تبررين براءتك من جرم خيانته ؟ هل سيكون هو خائنا وهم جلادون لك لا له ؟ هل ستكون سلاسل هذه الأزمة أبدية ؟ أنا أدفن رأسي بالرمل الآن كيف تهت في هذا الفراغ ؟ لم يكن لدي خطة بديلة .. إنهارت الأولى والوحيدة قبل أن تكتمل حتى كيف يمكن أن أكون جهزت بديلة ؟؟ إرحمني يارب .. إرفق بي

حررني من ماذا قالوا ولماذا كل هذا وألف هل وهل ..!

قررت أن أتوقف عن زيارات سماحة في عملها ولكن أحببت رفقتها فضممتها رسميا للمجموعة في لقاءاتنا الخارجية بعيدا عن الصالون ، زادتني هذه المحنة قربا منها فقد كانت تحرضني على القوة تزج في روحي أملا يرفع قدماي لأتشبث بتلك النوافذ المرتفعة التي لا يحظى قصيرٌ بفرص إلقاء نظرة من خلالها للخارج .. لبعيد .

كانت النوافذ كثيرة وما خلفها يريح هذا الجنون والفزع .. كل ماكنت أتشدق به على صديقاتي وكل ماكنت أختزله من نصائح جدتي وأحفظه عن ظهر قلب وكل هذا الهدوء والقوة التي تظهر علي هي أطباع نسختها منها فسدلتها علي لحبي لها ..لكن لم أقع بمعضله وأختبر القسوة كالأشهر الأخيرة وكنت أظن أن الكون لزاما عليه أن يتوقف ليشعر بي

سماحة صغّرت من أمر جرحي بلا إهانة لي أو لا مبالاة بل لتقول لي أن الحياة لا تتوقف عنده ولا أحد يسمع نحيب قلبك عداك .. أن فهد كبر أمره في قلبي أو صغر ، بقي أو رحل .. لن يكون نهاية المطاف ولن تكوني نهاية مطافه ايضا إن قررتِ نزعه من حياتك باعتقادك أنه سيفنى وستعاقبينه بذلك ؟

سيتوجع بعض وقت

سيتزوج ولو للنسل .. سينسى

حين تصل لهذه النقطة يشتعل ألف حريق بصدري !

ربما لأن سماحة ذات وجه بشوش وعبارات ألقت بخمارها فهي لا تسدل ستائر التكلف والحشمة عن اللا معهود من الحديث ذا النص المحدد فتلقي بك في غيابة الدهشة كل مرة تعلق على أمر ما أو حديث جانبي لزبونات تفشي أعينهن التي تتسمر بها أن ذاك الحديث يقتات منها ، لا تبالي به غالبا ولكن لأن اللؤم بشع ينمو بكرم السقاية لصبر لا يليق به فهي تصده في حال تمادى بالوقت مسرفا به بوقاحة تُصدر صوتا بشعا عند المضغ على هيئة همز لو أُختصر ولُملم قيحه لبقيت لهن باقية من تلك الكرامة التي بعثرتها لهن هذه الكوافير التي قللن من شأن لسانها المركون في أقصى حلقها تفاوضه على السكنى والحُلم .. ولكن كيف له أن يستكن أن طال بالهمز الطريق فأستلئم وأستلهم أمانا حال به إلى النمو متسلقا السمع بلا مبالاة فقد فسرن ركونها عدما وضعفا ، وحين تؤخذ هذه البشوش هذا المآخذ تلدغك لتُدهش .. ولا تنفك مندهشا فإما أن تتهذبِ ويكن ترياقك دوما منها أو تتجنبيها إن كنتِ ذات دم لا يحتمل أي ترياق لم تفرضه القبيلة فهذه العاملة يحتم التعامل معها تقنينا وفصلا تؤدي به ما عليها تجاه صاحب العمل فلا وصل بين من تملأ الكرسي

وبين من تقف خلفه وكان هذا النوع سائدا ومريحا لسماحة فلم تكن تتمسح بأحد ولا ترغب بمنح أحد فضلا ومنة بتواضع خلق حديث لا يغني ولا يسمن من نحول هذه الغربة ولكنها رغم هذا أصبحت تتقن حلّ وثاق الأقنعة وتلمّس الملامح فأجد منها ألفة فائضه عن العادة مع بعضهن وحين أتساءل عن ذلك يكن ردها إما " معترة تؤبرني أو هبله ما أحلاها " وكرم منها إن قالت "مهضومة كتير "

كانت تتلمس الجمال والألوان داخلهن رغم أنها فاتنة لم تكن تعيّر جمال الهيئة أبداً ليكن معيارا واضعا أثره على تعاملاتها ولا حتى على سبيل المزاح والضحك ..!

لأن الحقيقة دواء ولأني أبتغي الشفاء وإن كان طريقه موجعا وعراً يشق على سمعي تناول هكذا مرارة ورغم هذا أرخيت السمع و واضبت على جرعاتي كيلا يتضخم الجرح وتتلاشى فرص التسلل من فرجات هذا الفخ لذلك حرصت على وصل هذه القوية والتزود منها ، ولكن ما يوقظ فتنة هذا الهمز على مقاعد الانتظار تلك كان جرحا لطالما أثار داخلي ايضا كبقيتهن سؤالا ينشطر متكاثرا منجبا سلالة أسئلة وتخمينات تزدحم في رأسك حالما تراه مسترخيا بين نهديها هناك في الوسط يميل قليلا ليعتدل مساره منحدرا بثبات نحو النهد الأيسر ليختفي عن أعيننا بقيته ؟ هل له بقية ؟ وأين يستقر ؟ ومن أين أتى ؟ وكيف ؟ وهل هناك غيره ؟ ولما لا تعنى بستره ؟ لما لا تهتم به ؟ هل وجدت نفسها هكذا ولم تعد تكترث به ؟ هل يعقل أن تولد بحرق أنيق كهذا ؟ لما مازالت فاتنة رغم هذا الفاسق المستعمر بمنتصف نهديها ؟ هل تعلم هي أنه أصبح معلما يشير إلى جيدها وتفاصيل أنوثتها أكثر مما لو لم يكن هناك ؟

ألم أقل لكم سؤال يعثو ويتكاثر ولا جواب واحد يخرسه و يقطع نسله !

ربما لأن لا أحد يجرؤ على طرح ذلك السؤال الأول. قررت أن القي هذا السؤال فقد كنت ضجره ومزدحمة بالسواد ذلك المساء فوقع نظري على جرح سماحة ولم أكن مهتمة جدا أو متوقعة شيئا قاصما بل أردت كسر الضجر .. وتغيير دفة الحديث نحوها .. نحو ذلك المحيط !

حينها تمنيت أن تعود اللحظة لأبتلع سؤالي ككل المرات ، لوهله رأيت أني تجاوزت المفروض فبشاشة صديقتي الأجنبية غادرتها وقبع على ملامحها جمود موحش وفاض من عينيها القاسية ضعفا لم أعتقد أنه قد ينال منها هي تحديداً !!

حاولت أن أعتذر ولكنها .. قالت:

_ "لأنه الأماكن بتحكي جيت لهون .. تمنيت كون طرشا لارتاح أو تخرس هالجدران وتريحني ولأني ماطرِشت ولا الحيط بيفهم ويحس ليُسكت قررت أُبعد لمكان جديد ما بيعرف عني شيء وما بيذكرني بشيء " !

_ إستطردت و لأني كنت مبللة بالشغف والفضول .. بالكشف ، أرخيت سمعاً متذمماً إتصال لحوح دق في منزلنا ذلك اليوم قبل أن تشرق شمسه حتى ،ليغرب الخدر والفرح والأمان من حياتنا وايضا تلك الأحلام المخبأة والمرتبة بأناقة تحت مخدتي .. كل ذلك غادرنا مع خبر وفاة مغترب إثر تواجده في مكان شغب ! والدي ذلك الهادئ الرحيم رحل ، وبجملة قصيرة ودخيلة لا تشبهه أبدا ولا تنسجم مع النص الذي كتبه في حياته .. حين تكون إنسانا تلفظك الحياة للموت وحين تموت حيّاً تتمسك بك الحياة لا أعد تلك الصباحات الكثيرة التي غصصت بالحياة لم أتمنى شيئا أكثر من أن أتنفسها أو ألفظها ،كنت عالقة ومختنقة بها ، لف بيتنا الوهن فترة حتى ذلك اليوم الذي دخلت فيه أمي غرفتي بهدوء ووقفت ترقبني أبحث عن طريقاً لرأسي في مريول المدرسة وقبل أن ألف يدي لأشد حزامه على وسطي قالت : كبيه وألبسي أي شيء تاني بدنا نطلع مشوار كانت آمره وحازمة لم أجرؤ على السؤال فكيف بالرفض ؟

لم يبقى على شهادة البكالوريا غير سنة واحدة ، ذاك الحلم الصغيرغادرني وكانت تلك أول قطعة تسقط مني على طرقات الحياة ، ذهبنا إلى صالون نسائي تحدثت والدتي مع صاحبته لمدة قصيرة علمت من طريقة الحديث أنهما تحدثا قبل ذلك وتم الأتفاق على أن أعمل من التاسعة صباحا حتى الثامنة مساءا طوال الأسبوع بإستثناء يوم واحد سيكون العمل به نصف يوم يبدأ متأخراً ..

في طريق العودة تجرأت أن أسأل والدتي عن المدرسة وماذا سيحل بها ؟

وكان ردها سكينا بتر حلمي بلا مفاوضات أو طريق عودة ترجى ، حاولت أن أفكر بحل وسط وأقنعها به بأني مستعدة أن أخرج من المدرسة على العمل مباشرة حتى المساء ولن أتذمر ، كنت أحاول إنتشال حلمي من الغرق ولكنها حسمت الأمر ولم أرها بتلك القسوة مثلما رأيتها ذلك اليوم .. فكان حسمها قاضيا أن المدارس حِملٌ لا تقوى عليه لاثنين ولأني البنت منهما فالخيار الأول في البذل والشقاء لزاما أن يقع علي ليكون أخي هو الأرض الصالحة للزراعة والري وكنت الأداة التي ستحرث أمي بها لترعى وتعنى بالاستثمار الأهم ، لم تكن تلك لعبة تحتمل أن تجرب أمي معنا طرقا أخرى كأن تسألنا أي الأدوار نحب لنلعبها وفق رغباتنا قد يكون هو لا يرغب بالتعليم ؟ وقد يكون إستثمارا سيئا فيه ، قد يكون أرض بور لا تنبت فكيف تثمر لنهز جذعها يوما فيتساقط علينا ربحها وأجر شقائنا بها ؟؟ ولم تلقي بالحجر ايضا لعل حظي يتحالف معي ضدها ويكن العمل من نصيب أخي وأحظى أنا بالرعاية والسقاية منه .. ولكن لأني الفتاة في مجتمع لا يرى في الإجتهاد بي فائدة ترجى أتت طريقة أمي على هيئة قرار لا يُطعن فيه ولا يُقبل به استئناف .!

لطالما أحببت فراس لا تعتقدي أني غضبت منه . لا أبداً فهو إستثمار والدتي بلا مسائلته ايضا ، ولكن كسرت أمي شيئا في نفسي حين فاضلت وقررت أن لا أكون شيئا سوى سقاية ترعى بها أخي وتعليمه ، كان فراس لا يصغرني سوى سنتين . تأقلمت مع الوضع وطويت صفحة الأحلام الصغيرة تلك وحللت ضفيرة المدرسة ودارت بي الأيام في ذلك الركن الصغير الملون الذي يجمع ويفرق نسوة من كل صوب ولون كانت أحاديثهن و وشوشة النميمة هي سكر القهوة المره التي تقدمها العجوز الطيبة أم نضال ، ينتظرنها بشغف ليبدأ هذا الطقس المعبود لهن والمحبب لي أول الأمر فقد إستلفت إنتباهي بلا نية مني بعض أبطال من ينقضن غزل خباياه ذلك اليوم وفيها أحاديث حمراء تدلق لونها على وجنتاي لا يراعين فيها صغر سني وجهلي بعوالم النساء ولن يبلغ خيالك مداه يا صديقتي لما يمكن للنساء وصوله بدقة لتفاصيل ما يخضنه من أخبار الرجال والحياة و لأني لست سوى عاملة صغيرة بمخبأ فارغة من التجارب لم يعرنني إهتماما ولم أنشده فلا يحق لي غير الإستماع

وحتى ذلك الإستماع جرفته العادة ليصبح سلوكا لا يثير إنتباهي ولم يعد علي بأثر أبصر به لبعيد وأستشرف من أمامي بلا مشقة التجربة والخطأ ، بقيت كما أنا أعمل لأن أمي أمرت بذلك ولم يقفز لي يوما بين أيامي مختلفا أو مبشراً لذلك غدت من عمري بلا تنبه مني ، لِكَم غدا وكم بقي لآت يلقي بي حلما جديداً يبعث فيّ حياة توقظ مكانا جديدا بجسدي وروحي ليعمل ، لعلّي أجرب عملا غير الإستماع الذي أركن إليه منذ زمن ..

ولن أعتبر قلبي حيّا حين يضخ دم الغيرة ونارها وقتما تدفع مجموعة فتيات بالزي المدرسي باب الصالون أول الظهيرة متهامسات بفرح يدلفن للتغيير وأدرينالين هروبهن من المدرسة مازال متدفقا يظهر بحديثهن لن يتوقعن من هذه العاملة اللا مرئية كم تتمنى العودة للمدرسة والمبيت لو أرادوا بلا شقاوة وتنصل من الحصص.

لن أقول أن قلبي يقظ لمجرد أنه إنقبض وأختنق بدمه بضع مرات أول سنة في عملي ذاك حتى إعتدت الأمر وعاد لسباته بلا فاصل ينعشه .. أو دم يتعاجل إليه لإحساس فاض إو غضب إشتعل فأضرمه..

كانت لحظات لا يحق لي البوح بها ولم يكن هناك من يستمع بالأصل

بعد ست سنوات من دوراني بالساقية التي شدت أمي وثاقي بها لحِقت بوالدي .. رحلت ولم تكن كفاجعة رحيله أبدا رغم أنه كان بعيداً حينها .. كان مختلفا وقريبا جدا رغم المسافات التي لم يناولها حق حضوره في قلوبنا منشغل بنا ولنا .. يفصلنا عن فم الحياة حتى إبتلعته و وضعتني أمي بمكانه ..كقطعة لوح رفدت بها هذا الفم المفتوح وإتكأت عليه ، لم ينغص سبات قلبي هذا الحدث ليشعر فركود دمي في عروقي لم ينبهه لما حصل فبقي راكنا بليدا، ماتت في فترةٍ ذاب قلبها منتظراً بلوغ أيامها ، قبل البدء بأيام فقط ليدخل فراس إختباراته النهائية لسنته الأخيرة في الحقوق .. لم تنل هذه المنتهى .. منتهاها الذي لم تسمح التفاوض به.

ذهبت وفطيرتها مازالت بالفُرن !

إنكفأ فراس على نفسه عالقا بالسرير إستوحش رحيل والدتنا أكثر مني كطفل متشبث بيد أمه وسط زحام وإذ به فجأة يجد يده الصغيرة خاوية و وحيدة فلم يكن أكثر من جريرة تجهل كيف يكون الحال بلا ذاك الراصف والمتبوع، تاه وفقد شهيته للدراسة والطعام فكنت أعود من عملي لأجد البيت ناعسا كئيبا تفوح منه رائحة خبز محروق ملقى وسط فوضى من كاسات الشاي الباردة وكومة بقايا سجائر نال منها يومه على حساب هذه الأطباق التي أجهزها له مساءا ليسخنها ويفعل و من ثم يهملها بلا خدش وغمس ، إعتاد فراس أن تُشحذ همته و يناغى كالأطفال ليأكل ،تدلله أمي وتسايره بين اللُقم لذلك لم يطق الوحدة ولم أعتقد أني أستطيع الحلول مكانها ، حينما طال غيابه عن جامعته زارتنا بعد عودتي ذلك اليوم بدقائق فتاة تسأل عنه ليست جميلة بقدر ما كانت بعيدة جدا بشكلها وطريقتها في الحديث ونظراتها التي لا تقع علي حين كانت تسألني عن أخي .. وكأنها لا تريد طباعة وجهي برأسها ، المسافة بيننا شاسعة لدرجة إني إرتبكت ربكة أنثى ضعيفة ورثة أمام أنثى أخرى قوية وشاهقة وسط هذا البيت البسيط جداً ،كانت تهبني هذا الشعور وتريد مني أن أستلمه وفعلت.

وكيف يمكن أن أكون صلبة وواثقة ولم تشهق بي الحياة كما فعلت معها ؟ قريبة من عمري وربما تصغرني وتكن بعمر فراس ولكن إبتلعت مني وبنصف بيتي كل حقوق صاحب المكان على الضيف ،جملتها واحدة آمره مغمسه بتهذيب وترى المنة لها أن تمنح ذلك ، لملت ربكتي لأسرع إلى فراس أخبره فدهشت من إكسير الحياة الذي دب به ، أمرني بعفوية لم ينتبه لها أن أخرج ملابسه ليبدل بيجامته أمامي لا يستره إلا سروال صغير جدا توقف عند أعلى فخذيه ولأول مرة أراه بهذه الصورة !

علمت أني كنت بعيدة هناك مربوطة بساقية العمل الذي لا ينتهي إلا بانتهاء رمقي الذي بالكاد يوصلني تختي لأدخل في إغمائة حتى الصباح لم أسهر يوماً حتى بيوم العطلة الوحيد فقد تراكم علي غبار العادة ويوم واحد لا يستحق أن أبذل به جهداً قد يفسد بقية الأسبوع ..والأهم علمت أني لا مرئية لم أؤثر بأخي ولم يكن هناك وقت لنكن إخوة ، فصلت والدتي بيننا منذ زمن باءت به لنفسها تُدلل وتغنج وتقف على رأسه فنسيني هو ، فلم يعد

يتكلف البحث عني أو ينشلني من دوامة عملي أي نهارٍ شاغر به أو مساء حتى والغريب أن العادة جعلتني لا أعتقد بوجوب هذا إلا الآن .. حينما رحلت تلك الفرقة .. أمي!

لن يكون حقا إن لمت أخي في أن لا يراني ولن يكون حقا إن غضبت منه ايضا ؟ اليس كذلك يا صبا ؟ فخيوطنا كانت بأصابع والدتي ، فكرت تلك الليلة كثيراً بما حصل وبما لمست داخلي .. وكلام تلك الغريبة لفراس من عتب وتحفيز ليدخل الإمتحانات لئلا يخسر أشهراً جد وتعب فيها ولكنها لم تحرك ساكنه وركن لخموله الذي كان.

قررت أن أجدد عهدي به وأن لا أدع فطيرة والدتي تشيط وتفسد بعد كل هذا الشقاء بها، ألم يكن تعبي وكدّي أنا؟ هل أدعه يذهب هباء ؟؟ لذلك بكرت بخروجي للعمل ولأول مره منذ سنوات ست، عُمر عملي هناك أطلب من صاحبة العمل إجازة شهر كاملة !! لم ترحب جداً بالأمر ولكن لمعرفتها ظروفي فيما طرأ علينا من وفاة والدتي وحاجة فراس لي وافقت ومنحتني أجرة هذا الشهر مكافأة لي فكما تزعم أني بنت مطيعة وسأريح أمي بقبرها برعايتي لأخي !! ، كلهم يتناسون وجودي ومن أن ما سأفعله مني له .. ليس من أجل أي أحد

عدت للبيت وأدرت المذياع يومها لتحيا الجدران الخامدة وشرعت النوافذ لتهرب رائحة الموت ويستيقظ فراس ليتشبث بي أوصله آخر الطريق.. وكان ذلك مر هذا الشهر حيا تسقيه الموسيقى دفئا فلا هم يكلّوا ولا نحن نمل عطاياهم ، فيروز ووديع ومارسيل وكل من أحبهم أخي ليشتهي الحياة ويهدأ روع ذلك الصبي الذي تصنّم وسط الطريق وحده ،إعتنيت به وأجبرته على الطعام كما كنت أرى أمي تفعل معه مره اثنتان وعاد لطبيعته و همّ بدراسته وكأنه تنبه إلى فداحة ما كان سيقدم عليه بركونه وتشنجه قبل حافة الوصول فقط .

كنت سعيدة وفخورة وقتها أني إستطعت أن أكون شيئا غير تلك العاملة المهمَله من الحياة وكل الأشياء ، إنتهت فترة الإمتحانات كما تمنيت حين قررت أن أرعاها وأفضل من ذلك ايضا .. وعدت لعملي بينما ننتظر النتائج وكان يشاطرني إنتظاره وأنا سعيدة أني بلا طاقية إخفاء الآن .. شعور حي !

لم يبقى فراس بالبيت سوى أيام ليتعهده مكتب محاماة شهير بالتدريب ورغم جهلي بالحياة إلا أن هذا الشيء جلّي الغرابة فتساءلت عن كيف لهؤلاء قبول خريج جديد مستواه متوسط ولم يستلم وثيقته حتى !! أخبرني أن هذا المكتب لوالد تلك الزائرة الغريبة التي تحمل له معزة خاصة وسيعملان سوية هناك ، شعرت بوكزه خفيه في أقصى الروح علمت أن هذا المتشبث وجد يداً أخرى .. توجست خيفة أخفيتها بفرحي له وخبزت له كعكة التوت التي يعشقها لنحتفل بعمله الأول وتمنيت أن تكون أمي بيننا هذه المرة فهذا حلمها هي ، رغم كل الألم الذي كان لنصل إليه .. غدت الأيام هادئة نؤقت المنبه على ساعة عمله أجهز إفطاره وملابسه لينطلق بعدها أنيقا مهابا حريصا على عمله ومواعيده يحمل ملفات لا تنتهي ترمى على عاتقه ليختبروا جديته بما أن باب ولوجه إليهم كان مفروشا بالورود وكان هو يصارع لكسب ثقة المحامي الشهير ، في يوم وقبل خروجه الى عمله ناولني بطاقة دعوه.

كانت براقه وثقيلة ومحشوه بصندوق نحيف تتدلى من رأسه الجانبي فتلة معقود رأسها تنسدل الخيوط الذهبية منها ولم أعلم بالطبع أنها بطاقة دعوه لحفل زفافه على الغريبة حتى فضضتها فقد ظننت لوهله أنها هدية يقدمها لي أخي ، لا أعلم لهذا الحمق آخرا معي!

أنا من تصنّم وسط الطريق هذه المرة وهذه البطاقة شاحنة دعست علي وساوتني بالإسفلت الساخن ، الوجع ظهر على هيئة ابتسامة تبارك وتهنئ حتى خرج من باب البيت لينهال علي كصاعقة ضربت ساقيّ فأثنتهما لأسقط مهزومة مرة أخرى.

لم أعاتبه لأني أنا الغريبة كطعنة استقرت في قلبي عرفت ذلك وأنا أقرأ إسم العريس فراس أحمد ، كيف يمد لي أخي دعوة زفافه كما يمدها لغرباء لا يعنيهم من أمره شيء و حد الكفاية لهم أن يتذكرهم ببطاقة دعوة.

تلك الفرقة لم تدفن بجانب أمي كما أملت ، راقبت فطيرتها في لحظاتها الأخيرة وحرِصت أن تكتمل ونجحت وغاب عني بأي المقادير كان العجن والخَبز ، علمت وأنا أقرأ إسمه أني أقل من أن يحدثني بشئونه ، وأن أمي لم تسلب تعليمي فقط بل سلبت الدم الذي بيننا ولا أعلم ما الذي تتحدث بي معه..

فلو كان حديثا مغموسا بتقديري وتعظيم دوري وسنوات عمري التي القمتها إياه لما كان هذا شأنه معي فقدت حماسي و إجتهادي لبسط يد الأخوة التي عبثا أن تُرجى بعد هذا ، حضرت حفل عرسه وحيده بعد أن رفض سؤالي أن أصطحب صديقة لي من الصالون أو أم نضال كخيار آخر وأخير ينقذني من التجول وحيده أردت أن أصطلب بها فلم يقبل به أيضاً، أردت مَن يرافقني لتلك الجهة من المدينة الوجه الآخر منها الذي لم أعرفه قبل هذا اليوم تعلقت عيناي بطوبها المرصوف بعناية ،سطحه الأملس مهاب و مرعب بعث بساقي رجفة توجست منها خيفة أن أنزلق فنذرت حواسي لترقب خطواتي خطوة خطوة ، فآخر ما أريد في هذه الليلة سخرية كهذه يتبعثر بها الباقي من كرامة حزمتها بحذاء أحمر مدبب الرأس بكعب متوسط الارتفاع استعرته من نسرين رفيقتي في تلك الساقية ،كنت رأيته مرة عليها فغازلته عيناي بلا حرف مني فقالت لي وهي تغمز أنها ستعيرني اياه " بس اتلحلح " !

وباقي الحزمة فستان أسود منسدل كان مخبأ لفرح ، إلتقيت به في يوم شتوي كئيب وطويل يهمس لي خلف مراية محل مدام ماغي كنت مصغيه له بخشوع لدرجة لم أشعر بمدام ماغي إلا وهي تجرني إلى داخل المحل وهي تثرثر ولم يكن هناك فرصه لأهرب فقد حل بأذني صراخ أمي وكيف سيكون لو علمت بأمر هذا الفستان الذي سيقضم ثلث معاشي حاولت التملص والاعتذار ولكن هيهات أن تدعني أخرج كما وجدتني ،كلفني ذلك الهمس حرماني من مصروفي وعلقة ساخنة صبت في أذني طوال ذلك الشهر فكانت حقيبتي فارغة إلا من هويتي فلم يعد فيها ما يستحق عناء دسها بها فدسستها بصدري حتى زالت غمة هذا الفستان.

لم أغضب أيامها بل كنت أسترق النظر إليه كل ليلة و أعقد الهدن مع الأمل إستبشرت فرحا أستقبله به ذلك كل مالدي كانت أصابعي عارية من أي مجوهرات أو حتى سوار مزيف لم يكن هناك وقت لتكون لدي هذه التفاصيل ..

الآن فقط علمت أن لمدينتي وجه آخر غير خاصتنا في حينّا المهمل والمنقوش على جدرانه خُلق الإنسان في كبد، كلما إنعطب صبري تلمحها عيني فتدهن سير عجزي فأكمل الحرث فالموت مع الجماعة رحمة وكلنا في كبد.. أليس كذلك ؟ حتى هذه اللحظة عرفت أنه ليس كذلك فهذا الوجه من المدينة يا صبا يتفتق منه الفرح والخفة أشعر بهم يطيرون من حولي وأنا الثقيلة الوحيدة بينهم وكأن قدمي تنغرسان في طين لزج أقاوم كي أخلق خطوة جديدة كل مره رغم أنه طوب زلق ومع ذلك أشعر بثقلي إزاء خفة العابرين جانبي .

وصلت بوابة الفندق الشاهق وودت لو رفعت رأسي لأقع على قمته ولكن خجلت من رجلان أنيقان يردمان أطراف باب زجاجي بهلواني مت في مكاني وأنا أتعرف على طريقة الولوج من خلاله فشعر بي أحد المهندمان وساعدني ولم أجرؤ على رفع نظري إليه تمتمت شاكرة ووليت داخلها لتدور بي حتى قذفتني للبهو .. اتجهت للصالة المعنون بالبطاقة إسمها وكنت أرددها بسري كي أصمّها فلا أبدوا بلهاء يخجل بي أخي .. عريس اليوم وصلت هناك متأخرة ففراس مستقر مقابل الباب يفصلني عنه ممر مغطى بسجاد أبيض تمشي على أطرافه حتى تصلهما هضاب متساوية من الورود البيضاء في كل هضبة شمعة تستقر على آنية فضه يتقاطع بريق كل ذلك مع أضواء المكان ويضعني تحت مجهر الحضور جميعهم حين أقطعها كي أصل أخي لأهنئه ، كل هذا في لحظات ربما أكثر كل ما يموج داخلي يستنزف طاقتي ضممت حقيبتي أسفل بطني و انطلقت وكان تحديا فكل عيون هؤلاء النسوة الغريبات أو المتلألئات ؟ لا أعلم فلم أكرر النظرة الأولى لئلا أوليهن ظهري وأهرب ، وصلت فراس وقف لي قبلته وتمتمت بكل الحب الذي أعرفه له بأمنيات التوفيق وحين مددت يدي لعروسته أشاحت بنظرها عني وناولتني يدا معقوفه لم أنل منها إلا رأس أصابع !

ألقت بي هذه الغريبة كسابق لقائها بي في غيابة فوضى وكأنها تعلم أني على شفا ذلك ولا أحتاج إلا لنفخة توقعني بها، تهت عن مكان النزول من هذا المكان القصي العالي حتى شعرت بيد فراس تقبض على ذراعي من الخلف ليشدني جانبه ويأمر فتاة تعلق آلة التصوير بعنقها أن تلتقط صورة لنا .. إلتفتَ إلى عروسه همس لها بشيء ووقفت حانقة و صُنعت الصورة !

سأنوح إن بقيت ثانية هنا عدت لموضع النزول أتخبط فتلقفتني يد حنونه لامرأة كبيرة بالسن عرفتني بنفسها وكانت أم العروس ، كانت لطيفة والمصيبة أن لطفها هذا حفز الحزن بي أردت أن أبكي ،أن أتكلم ، أسأل لما إبنتها تقصيني قبل أن تعرفني ؟ ولكن يبدوا أنها ما تلقفتني إلا لأنها شهدت موقف إبنتها مني وقد تكون شهدت مالم أعلمه فعاينته بسلوكها معي .. دعتني لطاولة من الجنة بها كل طيب وممنوع سايرتني بالحديث اللين حتى هدأت نفسي قليلا .. و اطمأننت أن فراس وجد أماً أخرى ..رحلت وأنا مقصومة منه ولكن غير مشغولة به ككل عمري وكانت هذي محطة خيبة نعم ولكنها أرض يقينا إنتهيت من سقايتها وإن كانت بور.

قيامك بدور البطولة في هذه الحياة لا يحتّم عليها إزائه أن تسعدك .. حتى وإن لم تضرب على صدرك وتقوم به عن طيب خاطر أو قرارا تتحمل ضريبته .. حتى وإن كبلوك به فلا تنتظر تصفيقا لن يكون لئلا ترخي السمع وينفلج قلبك على أرصفة الإنتظار لشكرٍ ولو مثلوم !

عاد وجيب حياتي لما كان عليه من بطء ورتابة يزورني أخي خلال الشهر مره أو يقوم الهاتف بالمهمة فيكتفي بالسؤال من خلاله ، ذات ليلة زارتني فكرة لحوح لما لا أترك هذا العمل ألم أكن مختنقة به ومجبرة عليه ؟ ها أنا الآن حرة القرار .. كانت هذه الفكرة تموج داخلي وتفتك بكل محاولة تجاهل لها، أيقظتني تلك الليلة عدة مرات تريدني أن أنظر في أمرها ، فتباعد جفناي لتبقى عيناي مفتوحة وجسدي ساكن يراه الرائي فيوقن من نوم صاحبه ! حتى ظهر علي الصبح وبقيت تتقافز أمامي فوق الكرسي قبل أن يمتلئ بزبونه فأتمنى أن تدهسها بمؤخرتها فأجدها قفزت فوق رأسي ليريكني انعكاسها في المرآه ، حتى قررت سؤال نسرين بما يجول برأسي وحينما فعلت قتلت هي هذه الشقية التي حسب رؤية نسرين " جنان وكلام فاضي شو معك لتتركي شغلك ومين بده يشغل وحده بلا بكالوريا حتى ؟ "

هُنا تبخرت فكرة التحليق من هذا القفص وتقفلت أبواب حلم شرّعها رحيل من وأدوه قبلاً !

كنا على حافة الشتاء وقبل أن تفتح السماء للصبح بابها ثرّت سحابة باكرة في قدومها مطراً رد الروح للشوارع والأرصفة العطشى ، للحياة والهواء المترف برائحة الخير والفرح لو يعلم المطر ما يفعله بنا لما تدلل أخذت طريق العمل على غير العادة فقصدت كشك فطائر قريب أعلى الحارة فهذه الأجواء تبعث الشهية فينا لكل ما كان معتاد لا تُقبل عليه كإقبالها حين يحل المطر، حين عودتي نزولا نحن الصالون قاومت إنحدار الشارع المجعد ولم يكن جديدا علي ولكن لأنه زلِق يومها ويداي مشغولة بصحون الفطائر الملفوفة.

بلحظة فقط فقدت توازني وفلتت مني صرخة صغيرة لم تكتمل حين تبعثرت ومامعي وسط الشارع، أرسلت نظري يتلصص لي بسرعة عن أحد شهد حُمقي وكان الشارع قبالتي خاليا فأطمئنيت، حاولت جمع ما تناثر مني على عجل وحين أردت أن القي يدي على الأرض لأتكئ بها فتحملني عن هذا المنحدر..وإذ بالأرض تأتيني بكلتا يديها واحده لقفت بها يدي التي مددتها لها وأخرى إلتّفت على خاصرتي وبلحظة كنت أقف على قدماي بلا أي عناء مني !

شاب أسمر بوجه محدد لو خُيّر بغير هذا الحسن ما بدله ،كنت قريبة بل قريبة جداً من هذا الغريب الذي يطبق على يدي بشدة كان مفتول البنية عريض الصدر حتى بت أني لن أبلغ منتهاه ،يرتدي قميصا حاسرا عن حقل نبت على صدره بأكمام لم تبلغ الحلم على زنده فقد كانت تنازع خشية أن تتفتق فلم تحاك لمثل هذا النفور!

توقف كل شيء عدا دهشتي و ارتباكي الذي خشيت أن ينفضح بهما أنها مرّتي الأولى التي تنتحر بها المسافات بيني وبين الرجال آمنت من سنوات أني خارج الرؤية ولولا لفائف الفطائر تبعثرت لم يكن رآني هذا الآسر .. نفضت يده من يدي وهربت لذت بأول منعطف أردت أن أختفي لم نتكلم لم ينبس بحرف ،شُلّ لساني ولكن لم أصُم موقنة لو قال شيئا لسمعت ، تمشيت قليلا لأتنسم هذا الصحو الذي غادرني حين حل علي ذلك المفتول وكأن هجيراً نافذاً حط على ذاك الشارع ،عدت لعملي وكان كل شيء بمكانه كل شيء كما هو .. رتم العمل لم يطرأ عليه شيء أما رتم قلبي لم يعد كما كان أبداً ،مر يومان بعد لقائي به

و إعتقدت أني بالغت بردة فعلي إزاءه ولكن كلما قصدت عملي تأكدت أنه عالقا برأسي لا يُرجى له فكاك ، سيكتمل عقد سنوات مروري بهذا الشارع ولم يخلق الله لي مثل هذه الصدف ،قررت أن أعوض البنات بتلك الفطائر التي لم يتناولنها وكن سبب ما كان ،أردت أن أجدد السبب لعلي أتعثر به فاستبدلت الكعب المتوسط بحذاء مستوي مريح فلم أرد أن يعتقد أني معتوهة لا أمرة لها على ساقيها تفترش الطريق كل حين ، حاولت مسح المكان بعيني بلا التفاتة تشي بي لو كان يبصرني من حيث لا أعلم.

وصلت المحل بسرعة وكأن الوقت قرر أن يكون نشيطاً الآن وهو لطالما كان زاحفاً لئيما معي ،إبتعت الفطائر وتلطفت مع "ختياره" دورها يليني فمنحتها دوري بإسم الأدب وأشياء كثر داخلي آخرها الأدب.

أردت أن أبطيء من رحيلي فلم أكن أنوي بعث هذا السبب من جديد لأجل عابر أسُرت به كجائعة تدب في أثره، خرجت محبطة وفي لحظات مخاض أفكار عدة كلها تشير إلى أنها مرة ولم تكن غير شهامة استيقظ لها هذا القلب المعطوب متلهفا للحياة .. للحب ، أيقظ الأحلام فيّ .. أتيت هنا لأن يومان من القلق اللذيذ كانا كفيلان برسم ألف حلم بصحبته على جدران المطبخ والحمام وكان وجهه على شاشة التلفاز حينما فلت مني الفكر وعاد بي لتلك الدقائق .. كنت مأخوذة به .. مأخوذة يا صبا لكل شيء معه .. أردت الحياة

"طل علينا القمر "أتاني هذا الصوت من خلفي .. هو.. نعم هو ، لأول مرة أسمع صوته ولكن لن يكون هذا الصوت الدافئ إلا له ، لم أمنحه انتباهي وأكملت الخطى ليسرع خطاه ويكن محاذيا لي ،كاد قلبي يقفز مني ليحتضنه ولكني ألجمت كل تعابير الفرح .. النصر !

لم ندع يوما يفلت منّا بعد ذلك اليوم لا نلتقي به ،نلوذ بكل بعيد عن سوط عين لا تشعر كم تحيينا هذه اللحظة المسروقة على طوبة حمّالة دخلاء غرباء يعتلونها ليتماهوا في بعضهم .. ليصطفوا فيئتلفوا أو يفارقوا، ليغترفان الأسى كل منهما دلوا للآخر.. ليخلقوا فضاءات تسمح بُسكنى كل شئ .. إلا ذلك الأسى المنبوذ !

حكى لي حكاية مبتورة عنه ،ينتفض كلما أردت أكثر ، إنتظرت إن يخبر أهله عنّا ولم أكن أطمع إلا به فهذا الرجل حرّك الراكد بي من إنوثتي ، إنسانيتي ، جدواي ، نفض الوهن عن قلبي فانتفض ليسجد له ،ليخر تابعا لمتبوعه كعابد لمعبوده ، علم هو ما بلغَ فيّ .. فاختفى

كان اليوم الأول من حفنة الغياب تلك باهتا ثقيلا حبست به كل أنفاسي أرقب ساعة الحائط خلف ظهري إستمريت في المراوحة بينها وبين زبوناتي حتى لاحظت صاحبة العمل فوضاي تلك وعند أول غفلة منها حررتني من رقابة عينيها ركضت إلى تلك الساعة واقتلعتها من صحبة ذلك الحائط العتيق وأتيت بها لحضن مرآتي وبفعلتي هذي سجنت نفسي لإسبوع كامل وراء قضبان الوقت بلا وعي مني ، كدت أجن أو جننت فقد نال النزق مني نوالا غانما وبلغ بي الصمت مبلغا شاسعا وطوت الشهوة بساطها عني فلم أقبل على شيء ولم يقبل عليّ في هذه الحياة التي خبرتها غير صوته وعيناه ولمسته وكل تلك المواثيق التي عقدناها في سرنا وإن لم ننطق بها ، أين حنانه مني أين حبه ، غيرته ، حزنه الذي يضمر وتخمد ناره بقربي فتضحك عيناه رضا فتغص بالدمع وحين أسأل عن السبب يتجشأ الضعف الذي تلبسه لحظة تجلي ويعود قويا شامخا يلقي بنكتة أو يتغزل بي لأنسى كل ما شهدت منه ، هل مثل هذا يتلاعب بي ؟ ويتسلى كما تردد نسرين فتغمرني

أم نضال بدعواتها بالعوض الأفضل منه حين ترى ذبولي ؟!

لم يرعاني بل لم يبصرني غيره فكيف أريد أفضل منه ؟ أريد ذلك الذي أبصرني وبكى لي وهزني حتى سخن دمي وعرفت أن للحياة وجها آخر غير برودها الذي عهدته وأيقنته !

بدأ الأمل يترنح في أرضي هزمه الوقت اللعوب، كلما مددت يدي إليه ألقى عليه سياطا بعقاربه فهي جموع محتشدة لا تتواني عن خدمته، فكنت قاب قوسين أو أدنى من مساندة هذا المترنح بي و الوحي له بما بدأت أكفر به وقبل أن يتلاشى وحين فقدت اهتمامي باللهاث خلف عقارب الساعة للحد الذي لم ألحظ به فراغ مرآتي منها بفعل مجهول أراد نشلي من سجن الترقب ذاك أتى .

أتيت في صبح ممطر وكأن المطر يستنهضك إليّ !

كان خلف الزجاج مموها بالندى والضباب وكل ما تكالب على الزجاج وغشى رؤيته ورغم ذلك بهذه الوقفة الغاشمة لانتباه عيون كل هؤلاء النسوة كيف لي أن أدّعي عدم إنتباهي ، ومع ذلك دبّت الحياة فيّ وخفّت ساقاي حتى بدأت ألملم شعوري كيلا أطير ! تنسمت كل أنفاسي المختمرة داخلي منذ رحيلك ، زفرتها تكاد تصلى من يشهقها بعدي ،وتوغلت صدري المضطرم ناراً ... نسمة عليلة شقت ينبوعا بارداً يجري متدفقاً بجنون نحو قلبي وكل أوردتي، أنا بحاجة لماء الحياة يبعث كل ميت فيّ لا دمٌ راكد يبقيني دابة تحفر الأرض ثقلا ، ومع ذلك بقيت أكبل جسدي لئلا يثقب هذا الزجاج ليغمرك ، ليشم رائحتك.. ليلعن وقتا لا يحملك لتدفع تلك الجموع التي نالت مني بغيابك فأستقوت على امرأة غابت أطرافها !

دفع بالباب وتعلقت كل العيون به فكيف بخشن جبار كهذا أن يدلف مكانا ناعما عطشا كهذا المكان وكمن لا يرى بفعلته غرابة توجه لمكتب صاحبة الصالون الذي يقبع زاوية يمنى تشهد بها كل ما يدور حولها يتحلق عليه ستارة موردة تشدها وتزيحها حسبما تشتهي ، تكلم معها قليلا وكانت هي متدلهة به وبصدره الذي يغرس سنارته به فيعلق النساء بها يعلم متى تغمز له صيداً حين تُشّرع الأفواه ويصبح ما يرجوه أمراً نافذا عليهن، وكان هذا فصرخت بي أن آتي بالقهوة على عجل ! ناولتني أم نضال صينية القهوة وحملتها إليهما وحين دفعت بها على طاولة صغيرة أمامه لأهرب قبل أن أهبه نظرة تتوالى هِباتي بعدها ولكن المدام كانت حازمة في أن أجلس وغادرت هي المكان لتمنحه لنا مرخية الستار خلفها ، لم تفعلها مسبقا وها هو يخلق عادات جديدة بأقل من دقائق !

تشاغلت بسؤاله عن كمية السكر التي يريدها لفنجانه فانحنى سريعا ليغمس طرف إصبعه بين شفتاي ويربت على سطح قهوته به ليعود مستويا على كرسيه ويخبرني بعينيه أن هذا سُكّرها !

وكأن شيئا لم يكن أو علم أنه بذلك يعيدني لمحرابه كاملة الإخلاص والتيقن موحدة به لا يحق لي التذمر أو العتب فقط التعبد مأخوذة به .

عدنا أفضل مما كنا من الوله والعشق ونادى بي زوجة فلبيت فرحة لا تسعني الدنيا ولا يحد بهجتي أي وساوس وشك، تزوجنا بلا مدعوين لا نملكهم اكتفينا بإخبارهم بعداً ، بعد شهور ثلاثة من زخم التلاقي بلا هدن ولا كلل ابتدأ فارسي يعود للعبة الاختباء خاصته تلك التي بدأها قبل الزواج ، يختفي يوما اثنين بلا أي إشارة تهدئ قلقي و تطعمني شيئا من الصبر والسلوى ، إحساس موحش ومشّوك.

كان يقع على سمعي سوء سلوكه وكيف نال هذا " الأزعر "فرجة تؤويه عن قارعة الطريق وقارعة النساء، يدق هذا الوجع قلبي وقبل أن يفتح له الباب أجده دلف إليّ فائضا بالاعتذارات والأسف لذاك الغياب فبقيت ما بين حضور وغياب توحدّنا قبلة وتفرقنا نظرة تفيض بالعتب والتأنيب تخرجه من تهذيبه الذي يتلبسه معي بلا تكلف منه ، أحبني وإيمان ذلك فيّ لا يتأرجح بين خبر وصيت أسمعه ، ولا حتى أول كلمة نابيه صرخ بها وهو مغروس بي دفعت به من فوقي إثرها وكرهت كل مسام وشبر في جسدي أحياه بي ومن ثم غمسه بوحله، إغتسلت منه مشمئزة نافرة ،علمت حينها أن فارسي إختلط عليه الأمر بيني وبين نساء الدور السفلي سر غياباته و إبتدأ يتداعى سقفٌ حلمت أنه باق !

حين خرجت تلك المرة من الحمام متطهرة منه كرهت قربه فاختبأت بغرفة فراس حتى أحسست به وكان الصبح حاضرا مرسلاً خطوط نور حاده بقدر ما منحته الستائر القديمة من فسحة ، استويت على السرير وألقيت بساقي للخروج منه فتشبث بي طاويا ركبتيه على الأرض مقبّلاً كفوفي بصمت لم أكن جبارة ولم يكن قلبي إلا ورقة هشة وهذه الصلوات بمحرابي لم تكن إلا بذخا لا يحتاجه فبه يزلزل قلبي ويفيض عما يسعه إحتماله ،حررت يداي منه وبتحريرهما تحرر نشيج مخبأ إعتمل بروحي طوال شهور.

وضع رأسه على صدري

لا يقول أي شيء..

حتى قال " أنتِ فقط تعرفيني .. أنتِ فك كربتي ..إن كنتي تحبيني ناضلي من أجلي ..أنا رجس يا سماحة، تعلمين ذلك و تجاهلته وأعلم أنك تعلمينه فلم أنطق به ،كلنا حاولنا أن نتحرر من الماضي ..لا تكفري بي الآن "

سألته "وما الماضي؟"

لن تستطيعي يا صبا تخيّل أن يكون أحدا أسرع من برق كما رأيت حين تبخر من حضني لحظتها بعد سؤالي ذلك هرب ولم أستوعب إلا بصرير و إنصفاق الباب تتاليا .

كان فضولي لماضيه حصان مطمئن إستكن بمن يتعهده ،طابت له ألوان طعام يقدمها له لم يخَبرها يوما فنام مربوطا لا يعنيه أن يتمعن بفارسه يكفيه ما قدمت يداه له !.. ولكن بعد أن حررت سؤالي من ظلمة الخوف كان لابد له أن يعقد رباطي بالنور ولو زيفا كنت سأرضى وسأتناول ما يلقمني لن يلكز هذا الحصان الكسول عن الشقاء أي قلق، لن يدق حافره متواترا أطبطب على ظهره كي يهدأ فيسكن لحظة ليرتجف بعدها أشرس وأعتى، لم أكن أجيد الجسّ و لا يليق أن يتلمسوا لهفتي للسؤال عن زوجي الآن ..

كانوا سيعاينوا حمقي الذي إعتقدوه فقط ! لذلك قصدت أم نضال بهذا الدور فألقت بي إلى ويل حتّم شقائي حين تشاغلت عني قائلة "أنها ستنيرني لو لم يكن زواجي كستر خطيئة..!

و لا خير في كلام يأتي بعد قصاص .. "النصيب قضاء يا بنتي وإذا الصبي رجال معك شو بدنا بقصته "

معرفتها وصمتها وحزنها من أمر زواجي الذي لم أعلم به إلا ساعة سؤالي ،كل ذلك ألحّ عليّ أن أعرف وكانت معرفتي أنا تحديدا لما يخفيه عني هي قيامة دق جرسها في حياتي معه!

نلت ذلك السر ولم يكن عظيما كما أوحت لي وشوشتهم وما الضير في أن تكون والدته راقصة، وأن يكن من ريع ذلك الدور السفلي ، لم ابه ولم أعلم لما هم يقاصّونه فيما لا يملك فيه أمراً ؟

أردت أن أراه لأخبره أني لا أهتم إلا به ولكونه هو الآن . حينما أتى كنت أريد أن أمنحه صفحات بيضاء نملأها معا بلا وجل وخوف، بلا تربص وتحري لما قد يكون لو تعرى الماضي ، أردت أن يكون للنعيم تمام وللجمل بيننا تواتر لا يبترها غصة ولا يوقفها إنكسار عار ،أردت أن نتجلى لبعضينا أن نكن واحداً يعتمل داخلنا القلق ذاته يغشانا ذات الخوف ويعترينا ذات الشك ،

نقرر أن لا نفرق بين البنت والولد كما أحلم أنا ونتمنى أن ندلل أبنتنا للحد الذي لا يغويها الليل فتتمايل له كما يحلم هو ، لم أعلم أنه يملك صفحات بيضاء بدأ بملئها يوم طلبني حياتي ليبدأ بها حياة غير التي عهدها .. ندمت أني بحت له بمعرفة سره ذلك ، تغير فارسي الحنون الذي لم تجتر غياباته عشقه من قلبي فكلما حضر حضرَ رجلا كاملاً دسما بالحب والوله وكل النبل واللطف وكأنه يحتكر خلقهما له ، غدا ذلك الفارس باطشا متقلصا، وبقيت أحبه فقد أحببت كائنا لم يعرفه الآخرون ولا يُجمعون إلا على هذا الذي غدا إليه معي ، ذلك الذي يختبئ داخله نسخة لا تحيا لمن يعرف إبن من هو .. وقد أصبحت منهم .. ولّى فارسي وتقوقع ولم يسامحني على اغتيال الرجل الذي تزوجني، الرجل الذي قرر أن يبدأ بي حياة لا تشبه حياة إبن الراقصة ورجل الحانات رجل يخلع كل القبح الذي ولد به يغتسل من الصيت الذي لم يقترفه ليدلف إليّ آخراً ودوداً دافئا منصتا شاكراً، كلماته لا تفشي عن أي وحل وطأه وتمرغ به عمراً.

كلما أردت فرحاً يفور الشقاء غضبا لخيانتي له فكيف بالحياة شناعة أن تدير كؤوسها على بارات المنكوبين مرة تلو مرة تلو أخرى تلو ألف، وحين تفتقدك ستنتبه أنك دسُست تحت التراب فيحين دور منكوبين آخرين تتعهد شقائهم حتى يوّلوا !

إن إعتدتِ وجه الحياة الشقي فلا تأمني الفرح فهي قد تتظاهر لترى مدى توقك له ومدى رغبتك في التنصل مما روضتكِ له منذ أزلك ، أتت لي بهذا الشامخ العاشق الذي لم يبصرني ويدللني غيره وما أن أطمئنيت به وتلقطت بذور أحلامي من هنا وهناك لأبدأ .. حتى قفزت تُخرج لسانها في وجهي وتريني أن الفارس ميت هو أيضا يبحث بي بعثا وحياة وأنا أشد الناس الى حياة !

بدأ يبزق كل نتن الماضي بوجهي .. وإن تكلم فهو نشاز أتمنى أن يعقبها سيل غيابات تطمرها في نفسي وأنساها لو تحننت وغنجته رآه عطفاً وإن خرج مني لفظ عال أو لمح كتابا بيدي صال وقبض على رسالة لم أقصدها تريد به استنقاصا ، لم نعد كما كنا وكانت عيناه تقول لو لم تعرفي .. لو بقيتِ الصفحة البيضاء .. فيأكلني الندم على ذلك وعلى ذلك اليوم الذي إنتشلني فيه وسط الطريق ايضا.. ليت ذلك الصباح لم يُخلق ولم يبعث الله به غيمة أمطرتني هذه الكربة !

حاولت كسبه كثيرا حتى ماهت ملامحي وكلما فتشت عنها بزق قيح ماضيه ودفنني بكومة عُقد لم أكن بقدر كاف من معرفة الحياة ولا علومها لأجد حلاً يعيدنا لما كنا عليه ، عشاقا يتمثل عالم كلا منهما طولا وعرضا بالآخر.. الآخر فقط ،يذود عنه ويحميه ويكن بظهره .. لا ينتهي مد الكلام إن بدأ ولا تمر القبلة بينهما بلا تداعيات يفوزان ببعضهما بعدها ، أصبح كل شيء غصبا .. الحياة البسمة النوم الجنس .. كل شيء، إن تثاقلت التمثيل والمسايرة سخّر ذلك الجبروت على جسدي ولو تهويشا أو تلميحا فتحولت تلك الذراع المكتنزة مضرمة النار في قلوب نساء الحي لعذاب ألظاه وأترقبه.. أردتها عونا أستند إليه فأصبحت سوطا أخشاه.

حين ترى أم نضال أثرا أو كدمة تهمس لي أن أضع بفمي ماءاً حتى يخمد غضبه فلم تكن تعلم أن صمتي وضعفي يثير براكينه ويوقدها

حتى إنشقت السماء يوماً عن نورٍ مختلف وجديد لكلينا كدت أن أطير حين بصرته، علمت يومها أني حامل وأن مخلوقا يستدير داخلي من ثلاثة أشهر، لم أبكي مثل ذلك النهار إلا بيوم وفاة أبي ولكن بكائي هذه المرة كلما زاد زدت خفة وسقط ثقلا مني وكأن همومي إصطفت ركبانا و إتخذت من دموعي مخرجا لها ،شعرت بإنعتاق وبشرى .. ظننت أني غصن مال منذ زمن وليس حمّال ثمر.. أخيراً سيكون لي من لا يقدر على خذلاني، من يراني قبل غيري ، ولا يرى غيري إلا بي .. أردت أن أوقظ الفرح وأؤثث البهجة إجباراً لا توددا وأماني في بيتي فعزمت على إخباره بهيئة توحي له أننا بأشد الحاجة إليه وأن الصفحات بيضاء كما يريد فليستأنف الكتابة.

انتظرته ليلتها حتى غلبني النوم رغم فناجين القهوة التي تناولتها لمقاومته إستيقظت متأخرة عن عملي ومرهقة من الإنتظار لملمت الأطباق من على الطاولة وكانت الشموع مشتعلة حتى آخر الفتيل فخبت لوحدها، وضعت الأطباق بحافظات حتى آخذها معي للصالون وتكن غدائنا اليوم، رميت الصحون بلا تنظيف في حوض الغسيل حتى المساء.. وخرجت ، في المساء كنت سعيدة وبطاقة مهولة فقد استأذنت في الإنصراف أبكر من العادة حتى أقتص نوما يعينني على سهر الليل فكان هذا ،بعدها أعددت العشاء من جديد ولكن هذه المرة كنت متيقنة من حضوره فإن غاب ليلة أتى بالتي تليها ولأنه لا يأكل بياتا فهذه الليلة جديرة بالأفضل له ولم تصل الساعة التاسعة إلا وصوت الباب يسبقها.

كنت أمام التلفزيون أقلب قنواته بكسل أرتقب الباب وحالما رأيته أسرعت للمطبخ لأحضر الطعام من على الفرن، كنت متوترة وقد تكون السعادة طغت على لوني وسلوكياتي فبدوت على غير سكوني والأهم كنت مرتدية الدانتيل الأسود الذي لا يخفي كثيرا من جسدي ويضيق من خصره لغاية أردته أن يلاحظها ولكن بلحظة كان يقبض على شعري ويسألني أسئلة قذرة ويجيب نفسه كنت مصدومة وأردت أن يهدأ لأرد، علمت أنه حضر في الصباح ورأى الفوضى في المطبخ والطاولة المُفشيه عن سر صحبة متحلقين حولها غادروها بلا مواراة لفعلتهم ،كنت أسمع ذلك وقبضه على شعري يمنعني من وقوع أشعر به ولا أقوى عليه ، حين إستدرت لأرى عينيه وهو يجتز حبه مني بصقت عليه ولم أعي إلا بطبق الباستا بصلصتها الحمراء تحط على عنقي وتشق لها مجرى على جسدي ،كنت أصرخ وأشتمه بقدر الجحيم الذي يشعرني به قلت مالم أعتقد أني قد أقوى على لفظه يوما بحق أحد فكيف به لحبيبي ، لعنت والدته وأهله وذلك اليوم الذي منحني إياه وكان يركل ظهري وكأني عدو يحلم بنواله منذ زمن فناله ولك أن تتخيلي كم كنت لحظتها لا أشعر به ولا بظهري وضعت يدي على بطني ولم أصرخ بسري خفت كثيرا أن ينال منه أيضاً ،حين بدأ كل شيء بالدوران وبدأت أنسل من دائرة لأخرى أضيق وأقل قطرا ،دوائر تدور وتنتج أخرى وأخرى كان يبكي خلفي يناديني وكنت أحاول إبعاد رأسه عن بطني ،حاولت جره من شعره عني فلم أقوى ،لم أرده أن يثقل على إبني فهذه الليلة نحن نحتفل به فكيف نزاحمه ، هذه الليلة له فقط .. لم أرد الموت قبل رؤيته ..

"سأحتفظ بك ولن يشي أحد بك له.. لا تخف يا صغيري.. لن أموت"

ها أنا الآن أمامك أتنفس ولكن مت تلك الليلة مع جنيني .. خرجت من المستشفى بلا شكاية ولا صوت ..لا شيء يستحق الجدل ولن يكتب لي غير الذي كُتب.. منهك أن أتمنى.. و قاتل أن أحلم ..قاتل جداً !

لذلك قررت أن أغترب عن الأرض رغم أن الطين واحد وإن إختلفت القوالب، لا يغرك ما سمعتيه من حمق فتلك النسخة القديمة مني، أما الآن أنا أقوى ولا أطمح لشيء ولا أتوق لأحد وخاصة الرجال ..

سألت : " أنتِ مطلقة الآن "

سماحة :لا لم يطلقني ولم أبحث عنه ليفعلها !

(5)

ضجّ رأسي بما عرفت عن سماحة لم أؤمن بمن قال أن كل إنسان يوجد داخله إنسان آخر لا نعرفه حتى سمعتها ذلك اليوم، ولكن كل ما عرفت يؤكد لي سبب كوننا قريبات فكل هذا الذي تختلقه من قوة ونزق ولا مبالاة لم يحجب عني رؤية حقيقتها حتى لو إعتقدت هي العكس وأنها تجيد تلبُّس مالا يخصها فالروح الجميلة فواحة يستطيع أقرانها شمّها وتتبعها وإن لم يلمسوها بأمر صاحبها.

هناك آخر داخلها مخبأ ولكنه وإن لم ترد يشبه كثيرا الذي تكونه الآن ..!

أقتصّوا جناحيها الصغيرين ويعقدوا المُنى كي تطير، يقبضون حق الرهان على أن نلمس السماء بينما في يوم إنجابنا يدسّون أيديهم تحت المهاد الأبيض ليبتروا أقدامنا الصغيرة ،يجتّزوها كي نتمايل حين نقف..

كي نسقط فيكسبوا الرهان .

كيف نُلقى في الجحيم مرتين بلا جناحين كخاصتهم نقاوم بهما وينسدل ألف خيار نطفئ به كل نار يضرمونها بنية أن نوقدها نحن لنتلظى نحن ايضا .. ليسعدوا بها وسحقا لنا في قاع يصرخ هل من مزيد فنُلقى تباعا بلا ذنب سوى أن النار لابد أن تحيا ونحن خير من يُحييها ..

لو لم يقتصّوا أجنحتها .. لو لم تغفل تلك التي دفعت بها الى الحياة ..تلك التي إستلقت بعد وهن السقوط بها .. هذه الموءودة لو كانت ذكرا سويا لكان مهاده بخير .. لا يُجّس ولا يقربه الشيطان فيوسوس بهم لعَقد الرهانات ..

هل تلمس السماء ؟ هل تكون كل شيء إلا فتيلا لجهنم؟!

انطفأ الليل الذي أوقدته سماحه فكان صباحي ثقيلا هشا استيقظت بطعم الرماد في فمي يسد شهيتي لأي رمق يدفع به لأبتلعه فيسكن معدتي حتى أعتاد عليه كغيره مما نتجرّعه لنُكمل الحياة ...!

مرّ اليوم عابراً لم أُلقه بالا أردته أن يعدوا فقط .. أن يسقط من رزنامة الحياة بلا ضوء ينَسل فيقع على وجع جهلته فيّ أو في من أحب ولكن يأبى أن يكون فقبل أن يستلم الليل عهدة النهار صفق الباب الخارجي ليمرر إلينا هند في وقت أردت الجميع إلا هند .. غاضبة وحانقة وفي رجاء أن أسالها سبب ذلك فتعابيرها كانت مفتاحا تلقيه في حجري لأديره فينبلج بابا لا يمكنني الآن احتوائه ، هل كان صعبا أن تؤجلي يا أختي غضبك هذه الليلة فقط .

لن يكون يوما عابراً فحتى الأيام لا ترضى أن تدار ولا تقبل تهميشها فإن أردت وكنت في رجاء ذلك ستحّل عليك في ذلك اليوم تحديدا .

في إستسلام .. قلت لها قهوة وشوكولا وسنعالج هذا الوجه الذي لا يليق به إلا مراتب الرضا العليا ليتهكم على الآخرين من عليين..

وعدت إليها بعدة البوح ومنحتها قلبي مستعدا بقبر آخر مفتوح جاهزاً لما هو آت !

وجدت هند أوراقا بنكية كان صالح يخفيها عنها ، كنت أحاول فهم غضبها من ذلك و القبض على مبرر لهذا الإحتقان الذي قرض بكسل ساعة من الوقت وما بين الفتات الذي ينسل بغفلة منها فهمت أنها غاضبة مما رأت ليس من أجل ما رأت بل من أجل سبب حرّي به أن لا يخلق هذه الحقيقة التي استيقظت بها إلى تشكيل وبلورة نظرتها إلى صالح من جديد.. هل هو صالح حقاً أم أنه يريني ذلك ليعبر فيّ فيسّتلب الطاعة استلابا فالفضيلة ليست إلا سُلما يصعد به إليّ ..و إلى عين الرضا بهذا المجتمع ؟!..

" الا ترين أن اللا تغير في عالم متغير وهم ومغالطة نقحم أنفسنا بها ونتظاهر بالمفاجأة حين نتصادم بمرونتنا مع الواقع الذي نشجبه بالعلن ؟ " قلت لها

هند: " الحلال والحرام بيّن والثوابت لا تعرف هذا التغير "

قلت : " طبعا موضوع صالح من الثوابت ولكن هناك إجتهاد يفسر هذه التعاملات ويزيح عنها الحرمة بما أن المال المركون تسقط قيمته مع التقادم .. قرأت شيئا كهذا فربما صالح يملك توضيحا أسمعي منه و إمنحيه حق التوضيح "

هند: " منذ متى وأنتِ تقفين في صف صالح في أي شيء ؟ أو لأن الأمر يثبت نظريتك في أن لا أحد صالح كما يعتقده الاخرون ؟ وأننا كلنا نخبئ نقطة سوداء أو أكثر ؟ "

_" ألسنا كذلك ؟ " أنا

هند : " لا لسنا كما تريدين أن نكون حتى تسامحي نفسك على تجاوزاتك أنتِ وصديقاتك بحق الله "

قلت : " ألستِ الآن تساومين صالح بهذا الغضب ؟ وتريدين طحنه بهذه الزلة التي وقعتي عليه بها ؟ اليس كذلك يا هند؟ قد لا أعلم ما تخططين له لكني أعلم جيداً أنك أوقدتِ الفرن على طعام سيتناوله صالح جبراً "

هند : " لاحول ولا قوة إلا بالله الا يمكن أن أغار على مال زوجي وأتيقن من حلال اللقمة التي نتقاسمها، لاحول ولا قوة إلا بالله..!"

قلت : " مادام مُصّرة ككل مرة على إستغفالي يا شريكة الرحم بعد هذا العمر كله فيكفيك ما نلتِ من ليلتي "

حينما نهضت لأغادر .. "هند حبيبتي .. أنتِ الآن تفكرين كما يجب أن يكون .. دعواتي لك بالتوفيق يا مكّارة "

قلت ذلك ورأيت أنها مرتاحة وإن حاولت إظهار العكس..

ذهنها تفّتق عن شيء وارته عني وسأعرفه بالتأكيد .

فكرة هروبي إلى السرير باكرا لم تكن ذكية ولو قليلاً فقد ضاعفت من ذلك الوقت المستذئب حينما يتفرد بي، لم تصبح بعد لعبة الطقوس التي أغلبه بها تصلح فأثرها بات وهرِم ، كنت أعبئ فم الليل الواسع طقسا تلو طقسٍ بتأني فتنتفخ أوداجه ويتباطأ سريان دمه ويتقاصر فلا يكن ذاك العملاق الذي أنهكني أول الأمر .. والآن خلى وفاضي من الألعاب .. سئمت عيش حيوات ليست لي.. بدعوى أن أزيحك وأفقد أثرك ..

تفقد ذاكرتي رائحتك .. صدرك القمحي .. جنة طلعها بهي .. يناديني فأخّر أتنعم بها .. أنسى الدنيا وما فيها ..!

كل ملاذ لهثت اليه تنبت أرضه شوكاً

وأعرف ان الطريق إلى حضنك فكرة مشلولة لا تدفع إليك، بل تدفع بي إلى الجنون أكثر

أطردها وكل درع لا يقيني من ضراوتها

و مازلت صامدة

كل هذا وذاك بلا معنى

بدونك كل الاشياء بشعة وثقيلة الوطء على روحي وكأنك حرضت الجميع ضدي.. قهوتي.. صباحي الذي كان يعشقني.. ليلي الذي تشارس معي .. لم يعد للأشياء طعم .. لم تبهت ولم تصبح رمادية بل أصبحت قاسية مليئة بالوجع ..

أمي لولوة .. أنتْ .. كلاكما تعاهدتما على رحيل لم أتنبأ به ، ريح مرسلة رفعت لحافي بلا صرصر تنذرني به، تلمح لي أي مآل ستلقيني إليه .. أي حال سأنقلب عليه !

كنت خاشعة تحت لحاف كل فكرة تجمعني بك في حضرة الأشياء القديمة لنعيد تعريفها ..نعيد تذوقها فنشعر بحلاوة لا نجد لها تفسيراً ..إلا أن للعشاق تزدهر وينفتح ثغر الأشياء كلها شيئا شيئا .. تفصيلا تفصيلا .. كل تلك التفاصيل التي لم نعرها إنتباها .. تنطق.. ترقص تتثنى وكأن كل لحظات اللقاء عرس في ذروته !

أردتك نكهة تعبر إليك الاشياء ..تنغمس بك كصوص لم أشتهيه يوماً

وحينما تذوقت علمت كم أنا جاهلة بطعم الحياة

تمر بك .. فتصلني معتقّة بك ..ليكون الذهول بها ما يفوق المتعة ..ما يفوق السعادة

لم اعد أخشع

مات الخشوع بعدك ..

مركونٌ الإخلاص إلى جانب دبلتي هناك .. تحت إطار صورتك المقلوبة !

تركت لي الملل منثورا في هوائي أتنفسه ..أعيشه أختنق به وأحيا .. حياة لا تشتهيها لي يا فهد

هل تشتهي موتي وأنا أتنفس يا حبيبي ؟

حين يقبل الليل أخاف ..أرتبك أريد ان أخبرهم ما يرتكبه بي حين يرحلون ولا أفعل فالنهار يمرر لي زيفاً أكمل به يومي وكأنه يوصيني أن أدع ما يؤرقني راكداً في قاع اليوم أتجرعه بلا جمهور أستجدي شفقته ..

وهكذا .. حتى ظنّ الجميع أني بخير .. فهل أزهد بإحساس لا أملكه أصلا ؟

هل اسدد فاتورة ما ؟

هل نلت ما يستحق هذا البذخ المدفوع ؟!

نصف الشيء يربكني .. يمرجحني يزلزلني ، بين البين فهل أعود ؟

هل اكمل أم أقف هنا وحيدة بالمنتصف .. بالعراء ؟

أشعر أني أغوص تسحبني حبات الرمل

تحفر قبري وتغطيني .. لا تأبه لأنفاسي .. مازلت أتنفس

كيف أخبرها أني على قيد الحياة ..رغم الموت

أظافري ستحل هذا الأمر .. بدأت أنبش .. أقاوم أن يُغلق فوقي

والرمل يتحالف يتكابل ليغلق قبرا ضيقا ويدق السؤال الأول والثاني والأخير

وتضيع الإجابة ...!

لا أريد الحسم ..لا أدري.. لا أعرف ..

لا أريد أن أعود ولا أريد أن أكمل لا أريد أن أموت هنا ؟

هل سيشعر أحدُ بي

هل سأكون مرئية بينما أنا اتلاشى ؟

لطالما كنت ملفته خارقه كشمس الصيف

لا يمكن إنكاري ..لا يمكن تجاهلي ، لا يُبنى جدلا في ماهيتي

الان انا لست الا جدلا باهتا .. ينطفئ قبل أن يشتعل حتى .

جررت رأسي ثقيلا متدحرجا من بين وسائد ضخمة إحتضنتها قبل نومي فألقت بي من شاهق أودى بي إلى ذلك الكابوس الذي اجتز روحي وأمتص دمي .. سكبت نصف كأس الماء داخلي وقرأت المعوذات وتذكرت القبر الذي رأيت وخطر لي أن أقوم لصلاة الليل .. تململت طاردة طعم الموت الحقيقي وخوفي منه ! حاولت تذكر أي جانب كنت عليه حين إستفقت من كابوسي لأنفث ثلاثا متعوذه وأكمل نومي على الجانب الآخر فلا أغامر بعودتي لذاك القبر و الحصار !

لم أتذكر جيدا ونمت وأنا في حيرة أي جانب كنت عليه حينها والأرجح أني كنت على ظهري .. فزادت حيرتي فاستلقيت على معدتي كخيار حاسم إرتحت إليه !!

ستائري المثقوبة مررّت الضوء لعيناي في وقت باكر قاومت فكرة الإستيقاظ والبدء .. وحين علمت أني سأُهزم بضريبة مؤكدة على هيئة صداع فضّلت أن يكون البدء باكراً كما كان من شيمي في عهد مضى نعم ولكن ليس ببعيد لا يمكن إسترداده .. سحبت الدرج الجانبي أخذت مصحفا يرقد بسلام لا أزعجه كثيراً .. ولكن أردت بل إحتجت إليه اليوم .. صليت الصبح وقرأت فيه قرابة الساعة وكنت أقاوم أن أسهو ولو لثانية .. أردت أن أتمعن أن أقترب لله .. أن يقيني من فكرة الخوف .. الوحدة والإختناق حينما يغلق القبر !

ليست وحدتي هذه .. بل تلك بالأسفل

لم أعلم لما كابوس البارحة أصبح سيد يقظتي اليوم

هل الخوف من الموت الحرفي يخبرنا أن شعورنا بالموت ونحن أحياء ترف وسذاجة نستلقي لها بينما حرّي بنا أن نغتنم كل تفصيل من كل ثانية بهذا العمر المحسوب ؟

بين صرخة القدوم والرحيل برهة من وقتٍ لا ينتظر ولا يعيد الكَرّة حين يمضي ومع ذلك لا نأبه لا نكترث بل لا نعي أن من يحدد حالة وقتنا قد تكون حالته نقيضنا تماماً ومع ذلك نواصل هذا الدلق العبثي لأعمارنا التي لا تعود.

نحن النساء نبالغ بنفخ مشاكلنا حتى تنفجر وتتقيأ على أعيننا حقيقة أننا سُذّج ؟

هل يتمادى الرجل بإسقاط كل متع الحياة من أجل عينّي امرأة مضت من حياته ؟

وإن كانت تلك العينان تستحق أن يبزق كل امرأة تليها فلن يستسغ بعدها طعماً !

هل يفعل ؟ هل يعتكف فهد الآن وسّلم ظهره للحياة .. لكل ما في هذه الحياة ؟

نستلقي نحن على مذبح لم يُعترف به في عُرفهم لنكن قرابين مُهدره لا تحتسب ولا تُذكر ..

كيف أعيد ترتيب هذه الفوضى

هذا الاتكاء عليه أوقع بي بإرتطام بعثرني زحزح كل مدينةٍ في وجهي و تلاعب بخطوط خارطتي لم يكن حاجباي بهذا القرب، من عقدهما هكذا ليتحالفا على المكر بعيناي ويضللانهما ..يوحيان إليهما بزيف .. يهمسان بوشاية يبتكرانها لتقع في سمعي ومن ثم تختمر في رأسي الثقيل بعد الإرتطام فيتوجس ريبة تلك الوشاية يموه البشر جميعهم في بعضهم فلا يثق بمن يحبه ومن يتشمت حقاً فتنهار شفتاي على جنبيهما بتقويسة يكتمل بها التجهم الذي بدأ في جبهة الحرب العليا بقيادة حاجبان عثيا ولم يبقيا في ساحة الوغى ثغرة يهزمهما الفرح ويضعف بأسهما من خلالها !

أردت أن أتأكد من سير حياته من بعدي .. ولأني قطعت كل صلة به في برامج التواصل وحظرته من خاصتي ، أسرعت الى غرفة هند وكانت نائمة حاولت الدخول لهاتفها وكان مغلق خمنت الرقم السري أكثر من مرة وفي الأخير خطر لي أن يكون صالح أسم زوجها ولا أعرف لما كنت أكتبه بثقه متيقنة أنها المحاولة الأخيرة الناجحة ولم تكن

أقتربت منها لا أريد إزعاجها ولكن لا يمكنني بدء هذا اليوم حتى أتحقق من هذا الفكرة التي خبت بحضورها أي همة لغيرها .. همست لها وقالت:" هند " أعدت سؤالها: "الرقم السري ماهو ؟"

" هند .. أكتبي هند " زجرتني

كتبت هند ونجحت !

دخلت حساباتها ولم أجده مضافا عندها .. سألتها " فهد مو عندك ؟ "

قالت " ليه إن شاء الله يكون عندي ؟

صاير شيء .؟؟ صبا في شيء يالله صباح خير ! "

قلت : " لا مافيه شيء " وغادرت

لو لم يكن يقفل حساباته .. لو كان منفتحاً أكثر ومباهيا بنفسه أكثر لما احتجت التلصص من نوافذ تفضح شوقي

وتحيلني لجيش أسئلة لا ينتهي .. كيف أصل إليه دون أن يقع على أثري ؟

يعرف كل صديقاتي ولو إختلقت حسابا مجهولا لن يقبله .. وسأضع هذا الإنتصار بيده ولن أفعل

حاولت نفض هذا الفضول من رأسي .. أم هو من روحي ويطلقون عليه شوقاً ؟

نفضتها حينما رأيت بالمرآه أنه الشوق .. الغيرة ..كنت أريد أن أرى رجلاً باهتا، حياته متوقفة نبضها بطيء بالكاد يوصِل إليه رمق البقاء .. التعايش

كان والداي يتناولان الإفطار مع حديث متقطع عن برنامج والدي اليوم وأحداث عائلية من هنا وهناك وأبرزها أن جدي لوالدتي ليس على ما يرام وصحته متطرفة هذه الأيام .. أقترحت أن نزوره فكان رد أمي بارداً أفقدني قلقي عليه فربما هو ليس بالسوء الذي إعتقدته من حديثها

رن هاتف والدتي وطلبت مني إحضاره هذه اللحظة قفزت لي تلك الفكرة التي غدت في حالها قبل قليل فمؤكد أن أمي مضافة عند فهد .. مؤكد جداً .. أتذكر هذا

إنتهت محادثتها مع صديقة تطمئن بها عن صحة جدي .. وألقت بالهاتف إلى جانبها .. كنت أنظر إليه وأشعر أني لص على هيئة إبنتها الآن .. لأني أعلم أن أمي تكره المساس بهاتفها وكنت مضطرة لهذا المساس سأكون لصاً للحظات .. وكان التوتر الذي شعرته كفيلا بفضحي وتجمد دمي لا أعرف كيف اللصوص أحياء وسريعين و ذوو لياقة أيضا !

نهضتْ تودع والدي وقفزت نحوه .. كلمة السر لأمي سهله وبسيطة كانت تكررها بالقرب منّا دوما ونتظاهر بعدم الأنتباه في حال إحتجنا لسرقته كما يحدث الآن حينها لو أثقلنا عيار استخدامه نضطر لبعثها على تغييره ونقع في مأزق لو طورته لمرحلة أصعب وتبقى صعوبته في نطاق لطيف متوقع !

العجائب الأولى لهذا اليوم هو معرفتي الأولى لرقم هاتف هند السري ويكون إسمها بينما أنا وسماحة من ندعّي القوة هواتفنا لا تنبلج إلا بحروفهم ..

ضحكت بصوت عالي .. وكنت أضحك من قلب للمرة الأولى منذ زمن !

ولجت لحياته المغلقة في وجهي الآن .. وكانت تسير وتنبض وليس متعايشا .. بل فائض العيش

كنت غارقة في بحره لم أشعر إلا بصوت أمي غاضبا فقد صبره لعدم فهمنا و إحترامنا لخصوصيتها ناولتها هاتفها وإعتذرت وكان إنكساري بابا لتنهرني من جديد كي أجلس فلم أعد طفلة بعد لأتحسس من صوتها المرتفع .. جلست وحين تفحصت هاتفها لترى فيما كنت أعبث ..

تبين لها سبب عبوسي فجأة فقالت : " فهد رجل لا تتوقعي يكون ضعيف ويعلن ذلك على الملأ ؟ "

قلت : " الله يسعده "

قالت :" كنا بمنزلهم قبل يومين ودخل للسلام .. كما نعرفه فهد القوي صاحب الصوت الجهوري لم يتغير به شيء .. الكل يراه كما كان .. ورأيته هشا منكسراً لو طلبت منه حمل ملعقة لما أستطاع "

دهشت من أمي .. قلت : " كيف ؟ "

أمي : " منهك ومشتت ولم يرفع عينه عني كنت أتشاغل عنه بهاتفي .. بمحادثه أطيلها حتى يغادر

لم أعتقد أنه مكسور حتى رأيته فأمه تثني على حاله وأختي أعرفها سطحية ورؤيتها لا تتعدى أنفها " !

قلت : " وهل هذا شيء غريب بعائلتكم ؟ " تجاوزت أدبي

لتقول غاضبة : " لا تستحقين هذا الحب فأنتِ كأمه لست أنا من أشبهها .. تبخري من أمامي الآن "

وكان ذلك أمراً .. لم أستطع جدالاً فيه .. إعتذرت وخرجت

عبثت أمي برأسي يبدو أن نوافذ جمجمتي اليوم مشرّعة فكل هذا أشعرني بالتخمة مع أن معدتي مازالت فارغة، هل هذه أمي ؟ وتتهم الاخرين بالسطحية ؟؟

لطالما كانت هي كذلك !!

تتوغل بفهد وتقرأ حاله .. وتهتم أن تبوح لي بذلك ..

لما هذا التبدل ؟ هل ظلمتها ؟ هل عادت أم تغيرت ؟!

هذا اليوم متخم والسبب هذه الفكرة التي جرتني لكل هذا البلل .. لن أفكر باكراً أبداً فالوقت الطويل يلقح الفكرة الخجول لتصبح ولاّدة فاجرة لألف غثاء .. ألف ضياع .

***

(6)

اليوم إستيقظت على رنين الهاتف الذي مرّر لي صوت ليلى وأشياء أخرى لي بدا منها أنها خارج البيت كعادتها في الفترة الأخيرة فصديقتي عالقة في دوامة التجهيزات لعرسها فهي على شفا الوقت الآن فلم يتبقى إلا أيام قليلة، كان إتصالا عابراً لإلقاء التحية و الإطمئنان .. سألتها إن كانت متفرغة الليلة فعلمت أنها ليلة المرمر اليوم، لأتذكر أنها دعتني إلى حضورها ولم أوافق فبيتهم مكتظ ووالدتها لا تحبذ أي أحد من طرف أمي .. كخصام حموات طبيعي .. إلا أن أمي لا تلتفت لهذه التفاصيل ولا تضايق زائرينا أبدا لذلك سألتها حتى أتمكن من سرقة صديقتي ليلة لنحتفل بها في بيتنا قبل زفافها فذاك الشفا قد يكون جرفاً يدحرج علاقتي بصديقة العمر لتلقى حتفها للأبد .. وإن كنت أثق بطريقة صديقتي في التفكير إلا أني لا أثق بزوجها أو مليكها ربما !!

أتفقنا أن تأتي في الغد .. وأخبرتني أن لا أبالغ في التجهيزات يكفي كم صديقة من الجامعة و كارلا وسماحة وإجباري هند ستكون موجودة وهل نستطيع تجاهلها ؟

كل هذا التقلص الذي تريده ليلى في شكل الحفل الذي أردته وهي ايضا تريده لنفرح وتكن سهرتنا الأخيرة قبل إنتقالها لحياة نوعية أخرى .. لتفضفض .. لتنثر في حجورنا التوتر الذي يدق في رأس كل عروس ..الذكريات وكل الأحاديث التي ستقال .. الأمل والحذر ..الأماني البيضاء لها والأسرار التي يُهمس بها من المتزوجات كل ذلك إن كان بحب فهذه الليلة ضرورة بين الصديقات يحتضّن بها صديقة خائفة من قفزة كهذه القفزة الشاهقة من علو .. كل هذا الحب مرفوض إن كان بإسم حفلة توديع عزوبية "bye single life party"

فتحرم منها بحجج واهيه كثيرة فالمسميات مهمة الآن، أن تفعل الشيء وتمارس التمويه والحجب أو تبديل المسمى ذلك من شأنه أن يجيز التصرف !

الأهم أن تكون ذكيا وتمرر ما تريد تحت إسم آخر أو بلا إسم إن شئت .. سيتجاوزون ذلك أيضا

لا تتفوه به فقط ومارسه كما تشاء .

مرّ اليوم عابراً متبلداً لم أشأ إنجاز شيء مما سيزدحم به يومي غداً .. مرّ بسلام

كانت حالتي هذا الصباح مهندمة قليلاً أعتقد أنه أفضل صباح للآن منذ زمن ربما لأني أملك خطة من شأنها إحباط أي فكرة دخيلة عليها و ليست مدرجة فيها.. فقائمتي الصغيرة تحتوي مهمة سريعة للإتفاق على قالب حلوى لائق فهذا الشيء يستلزم إتفاقات وعرابين و تدعو في سرّك فوق كل هذا أن لا يأتيهم عرض أفضل ويلقوا بك في حاوية الإعتذارات فتضطر في اللحظات الأخيرة للقبول بالموجود كشئوننا الأخرى بالحياة .. هناك مثل شعبي يقول الجود من الماجود .. اليس كذلك ؟؟

هذا المثل ضرب بنا وأدوى ولم نرى منه إلا إنصياعا بإسم القناعة بما هو موجود !

اوه أني أفكر الآن بما ليس ضمن القائمة . قبضت على هذه الدخيلة في رأسي و إقتصصت منها عاجلاً ،القيت بها في قاع سحيق يحتوي على كل مالا يجدي أن نتداوله ونتذمر منه أسميه قاع ويل .. نعم ويل لمن يفكر بما هو مستساغ بين الناس وإن كان خاطئاً أو قاتلاً حتى .. فيتناولون الكأس من أهليهم السابقين ولو كان سُماً على أن يفكروا في سكبه ومعرفة ما يجري هناك داخله، قاع ويلٌ لكِ.. إن أعدتِ سحب ما ألقيتي داخلي مسبقا من أفكار غير قابلة للتدوير .. للمعالجة .. للقبول

أو فلتنعمي بالشقاء

و لئلا يكن صباحا شقيّا .. وجب القصاص العاجل اليوم بلا مداولات رأفة واستئنافات أمل في الجدوى !

أنهيت إختيار القالب .. كنت أنوي المرور بالصالون لغسل شعري وتسريحه فسيكون هناك خمسة من صديقات الجامعة اللاتي لم ألتقي بهن من فترة ليست بالهيّنة ولكن تذكرت أني سأكمل مهماتي أول العصر والجو والعباءة كفيلان بإراقة كل تموج سُيصنع لذلك عدت إلى البيت.

قبل العصر أجريت إتصالا لسماحة لترافقني في إنهاء التجهيزات لنعود لترتيبها في المنزل معاً ووافقت وكانت هند جانبي عاتبتني حين أغلقت الهاتف أني لم ادعوها لمساعدتي وبحثت عن الغريب !

أخبرتها أني لم أعهدها مبادرة وأيضاً لا أريد إشغالها وشرحت لي بملل أنها تريد الخروج وتغيير مزاجها قليلاً قلت في المساء سيتغير حين حضور الجميع ولكنها أصرّت .. وكان ذلك

حين عودتنا في أول المساء قبل صلاة العشاء مباشرة ومع أننا كنا نسابق الوقت تأخرنا رغم ذلك

لنتفاجأ بصالح منتظراً أمام الباب الخارجي داخل سيارته .. عيناه مصوّبه ناحيتنا داخل وجه متجهم جداً

سبقناها بالدخول في حين تباطأت هي بالسير حتى تمنحه فرصة ندائها لا الذهاب إليه بنفسها وكنا بالداخل لحظة أن نادى فعلا ولحق بها داخلاً المنزل مغلقاً الباب خلفه .. كنت في أخر الممر الداخلي أشهد ما يحدث وأنا أشاهد هنداً مختلفة .. أو ربما أتلصص على هند الزوجة وليست الأخت وشتّان بينهما كما أرى !

وجهت الخادمة لفرز وترتيب الأمور المتبقية فقد داهمني الوقت عن تجهيز نفسي ولا أراهن بالبقاء أكثر للإشراف حتى تتمة الأمر .. بقيت سماحة في الطابق السفلي وستلحق بي لتجهز نفسها ايضاً ..

حينما خرجت من الحمام كانت هند بغرفتها فالباب موارب على غير حالته قبل قليل .. ذهبت إليها متطفلة أريد إسكات هذا السؤال داخلي لن أدعه ينال من ليلتي في الكر والفر لأصطاد إستنتاجا قد يكون وقد لا يكون بينما اليقين على بعد سؤال مني.

لذلك سألت : " تصالحتما ؟ "

كانت متفاجئة وبالرغم من هذا ردّت : " قصدك صالحني ؟ "

بصبر يوشك أن ينفذ قلت : " صالحك ؟ "

جاوبتني وهي تلج ممراً صغيراً يقود إلى غرفة أصغر للملابس " طبعاً "

وعادت برأسها للوراء مبتسمة لتكمل:

"و وافق أن نراجع المستشفى مرة واثنتان وثلاث حتى يتم الحمل بإذن الله ،قولي آمين ألا نحتاج أكثر من مرة"

قلت : " لا تقلقي لو رفض وتراجع في المرة القادمة أبحثي عمّا يُربحك تنازله كهذه المرة "

كانت غاضبة وهي تقول : " ماذا تعنين ؟ "

قلت : " قايضتيه يا هند ليفعل مالا يريد ؟ اليس كذلك ؟ "

هند : " لا لكن هذه فرصتي وهذه العمليات حلال شرعاً وهو يرفضها بلا عذر مقنع غير أنانيته وخوفه على صيته، من حقي أن أكون أم .. أنتِ معي أم ضدي يا أختي ؟ "

قلت : " وموضوع تجاوزه الديني .. ناقشته عنه ؟ أم أنها فرصتك لنوال الدنيا التي تصغرينها في عيني دائما ؟ لما هي كبيرة في عينك يا هند الآن ؟ "

إبتدأت تبكي وتصرخ في وجهي .. !

لم تعتد هند أن تصرخ كانت متعالية عن هذه الثورات تحوقل كأقصى تمرد ترفض به شيئا ما

لم أخرج كما أمرتني

" حضور الله فينا يا هند هو ما أتى بي هنا وفي يوم لا أريد أبدا الخوض ولو قليلاً في حديث كهذا ولكن لم أستطع تمرير هذا الوجه الجديد لكِ بلا إلقاء التحية عليه، وسماع ما إعتقدتُ أني سأسمعه منه .. لقد صعدتي على زلة صالح وكأنك كنت تنتظرينها لتقبضي على هدف كان من الممكن أن تحصلي عليه بلا ترّبص ثغرة لزوجك لتنسّلي منها وتنالي منه .. قلتي أن هدفك مشروع إذن لما سلّمته للفرص والصدف لتحصلي عليه؟ .. لما لم تحاربي من أجله بلا تكتيك المحاربين هذا في بيت تنوين إعماره !؟ "

"لا تتأخري بعد ساعه سيكون العشاء " أردتها حقا أن تحضر معنا هذه الأمسية

خرجت آخذة الباب خلفي واليقين الذي نشدته منه حينما كان مواربا .

كانت التاسعة تماما وهذا الإتصال الثاني من والدي هبطت الى الطابق الأرضي مسرعة وكان صوته يصلني قبل أن ابلغه فالعشاء اليوم كان تحت وصايته حينما أبلغته صباح هذا اليوم أننا لم نقرر بعد ما سنقدم على العشاء أم نكتفي بالحلويات والمعجنات وقالب الحلوى كشيخ السفرة وعميدها نفض به الحفل ونختتم .. فرفض مقترحا بحسم أن يهتم بالأمر وكان يريد أي فرصة يشعر بها أنه قدّم لأخيه المتوفي ما كان سيقدمه لأبنته لو كان بيننا .. لذلك لم يكن بُداً من التسليم له .. أراد أن يترجم مباركته لهذا الزواج الذي لم يؤخذ رأيه به بهذه اللمسة لتسعد ليلى وتغفر لإخوتها تشنجهم من كل من لا يتفقون معه بنهج حياته وإن كان عمهم شقيق والدهم !

كان العامل يساعده بإدخال صواني المعدن الفضية ملفوفة بعناية بقصدير مثبتة أطرافه بحرص كانوا اثنتين، غادر العامل الأسمر .. لأدخل المجلس النسائي وأرى أن والدي لم يكتفي بهذه الدائرتان المترفتان فقد كان يحوطهما أربعة من الترامس الفضية متوسطة الحجم أدرت غطاء أقربها إلي لتعبق رائحة الجريش المدفون تحت حشو البصل والليمون الأسود الشهي جداً .. أكلة شعبية تعشقها ليلى!

كيف لوالدي أن يكون بهذه الدقة ،كيف للرجال أن يلتقطوا المعلومة بإهمال وتعلق في أذهانهم حتى الحاجة إليها ! حينما تشتغل جدتي نهاراً بطوله على هذه الأكلة تشتغل أيضا بسؤالنا "هل اتصلتم بليلى تأتي وتذوق هالجرّيشه ؟"

الله يرحمك يمّه لم نوقد النار على هذه الأكلات من بعدك .. نشتريها كالأجانب .. ومن أجانب !

نادى بصوت عالي أين العروس أراد أن يبارك لها متيقنا أن يوم دخلتها لن يُشرك بأمر تسليمها لزوجها ولا فرصة السلام والمباركة .. أتت ليلى والشروق طلع على وجهها وكأننا في منتصف النهار .. سعيدة خجلى وكنت سعيدة أكثر منها وكأني أمها الآن ؟ هكذا أشعر رغم أن الدنيا تلقفتها قبلي بأشهر إلا أن هذا النور بعينيها يبعث على إيقاظ الفرح داخلي .. فأسوأ ما قد يمر بك أن تذبل كل صباح .. كل لحظة بدء قبل أن تقتطفها حتى .. بلا سبب غير أن الفرح غادرك اولاك ظهره من حين .. فتذبل ما بين أن يعود أو تقتطف هذا الحزن لعل آخرا ينبت مكانه .. آخراً لا يشبه الأول ،الأهم أن نُخلي المكان .. أن يحل الفراغ لتكون هناك فرصة لهذا الآخر .. سأرى، اليوم لا يجب أن يكون إلا ليلى .

ذهبت لوالدتي تقت أن تكون بيننا .. تحضر وتسد فراغاً لم يُملأ بعد فأمي لولوة لطالما كانت الوجه البشوش الذي يستقبل صديقاتي ويتعهد بطقوس هذه الأمسيات المكتظة بالزائرين .. تحفّهم بالحب وتحتويهم بحضن مبتهج تحمل أمر العناية بهم من لحظة وصولهم حتى مغادرتهم وإن أطلنا السهر تكلفته معنا ..

تغافلنا حين نلهو لتغفوا مفترشة بطن كفّها .. ولا نغالب ذلك فسنهزم برفضها أن تستلقي .. تتعهد بنا تحت جناحيها ونستكّن بأمان وشقاوة فلو أردنا لاجتهدنا أكثر لدفعها على الراحة ولكن من يجتهد لدفع الدفء والحب.. الأهتمام ؟!

وجدتها أمام التلفزيون باهته وهادئة دعوتها للحضور معنا ولم تهتم بالرد كانت بعالم آخر تخبئ إنشغالها بتقليب القنوات بينما عيناها معلقة به بلا وقع أثره عليهما، سألتها عن صحة جدي فأخبرتني أنه يحتضر ، ببرود نطقتها

" لا يتنفس لوحده .. ربما الليلة أو غداُ "

" يمّه أنتِ بخير .. ؟ " سألت بقلق

كما لم أكن من قبل .. ! ذهلت من كل شيء .. هذا الرد .. شكلها المهمل وتجاهلها لحضور أبي رغم أنها تعلم أنه بطرف المنزل الذي يغص بالفتيات بكامل زينتهن .. ليست من شيمها ألا تغار، ألا تمارس حصارها عليه فيشعر أبي بالزهو وكأنه أخر الرجال على الأرض !

كان شكلها عفويا ليس مهملاً ولكن هو مهمل عما كانت تتكلف به .. عما كانت ترهقه به ،أجدها الآن أقرب لشكل الأم .. عفوية ، بشرتها دافئة بهذا الروب القطني الأبيض المنقوش بورود الليلك الهادئة، كانت مثالية في حال فتحت لي حضنها لألقي نفسي به ،لأنتثر هناك ويعيد تلحيمي .. لمّ الشتات ، قطعت هذه الأمنية حين لكزتني بجهاز التحكم الذي بيدها قائلة كتذكرة تقطعها لي لأخرج " تأخرتِ على ضيوفك، أذهبي "

نهضت وقبل أن أصل للباب .. " صبا " نادتني

هل يعقل أن تكون قرأت أمنيتي ؟ هل سأتقلّب بين زهور الليلك؟

" البخور تجدينه بالرف العلوي من خزانة أبيك .. بخري البيت قبل يكتملون ضيوفك " قالت

_ "سمّي" كانت خيبة الأمل تفوح مني كفاية عن أي بخور يا أمي .

لكن هناك داخلي لكزة تزامنت مع اللكزة التي كانت على فخذي قبل قليل وكلاهما من أمي

فمنذ متى أمي تهتم كراعٍ لهذا البيت بتفاصيل ضيوفنا وتفاصيل الكمال التي يجب أن تؤدىَ ؟

منذ متى ترفض أن تحضر بين صديقاتي بحجة أننا صغار ولا يصّح أن تعكر صفو أحاديث البنات وتقيدهن

منذ متى وهي لا تكن درعاً يقي صدر أبي من سهم النساء..

تختبر الأرض قبل أن يطئها حتى تعلم أي لغمٍ يستقر داخلها لكيلا يصاب قلبه به، لطالما كانت الخطوة الأولى له .. النظرة المرسلة عنه لمسح المكان وقياس الأمان فيه .. ليتقدم محفولا مكفولا .. شهرياراً قدمت له كل بروتكولات الإهتمام والعشق والحصار التي تغذيه ليكن العاشق المدلل، فلا يشّذ ولا تُقتحم قلاعه و تُستعمر بغيرها ، كانا هكذا والجميع يغار من هذا الرّص بينهما على كل من يريد شق التحالف ونقضه ، أما نحن كنا نحبهما بكل الكيفيات التي نراهما فيها.

والتقصير مجبور بأمي لولوة وهما يعلمان أنها الأم الحقيقية لنا .. ولهم حين إكتمل العدد إلا من هند .. صعدت إليها بنفسي وكانت جاهزة بإنتظار بعض الرجاء مني تلتمس منه عذراً يطيب به خاطرها وإن لم أعنيه فلا يهم أن يكن حضوري لسبب ليس ذات السبب خاصتها فستُبدل الأماكن لما تراه يناسب إعتقادها .. عدنا لضيوفنا وقدّمنا العشاء كأول الضيافة ودفعت بالقهوة وطقوسها لما بعد .

فدائما حتى يحضر العشاء كل شيء يقف بالدور متشنجاً وله من الوقت مقدار معدود فأردت أن نعيد ترتيب سهرتنا كما نحب لا كما تعودنا وبذلك نتخلص من الرسميات بالبدء بها ومن ثم نتمرغ بطقوس الألفة من قهوة وحلويات ورقص وأحاديث بلا رقابة الوقت فسيُرينا الصباح نوره ليصرخ بالنهاية !

كانت الأفواه مُشّرعة سقطت ورقة التوت في لحظةٍ ما ربما لأن أطول عمر زواج بيننا كان خاصة هند ومع ذلك هو صغيرُ كفاية ليعلو ويهبط وجيبه من منعطفات خطرة ومازالت هناك أمور عذراء لم تُقتحم وتُستكشف.

وكذلك البقية الأصغر فالأصغر وكنت أنا آخر عنقود هذه القائمة الذي إختنق وهو يلقم نهد هذا البعبع فزواجي لم يبلغ الفطام ولا حتى الأربعين !

لذلك لم أكن طفلاً مترفاً معافى ليتغنى به أو اختبره كفاية ليكن عادلاً فيما له وما عليه .. كنت مستمعة فقط

وبكل قصة أو حادثة لا أرى إلا وجه فهد مكان أزواجهن أبطال القصص اللاتي يسردنها فكنت أضعه حينا وأرفعه حينا آخر وبسرعة فهذه القصص وهؤلاء الأبطال لا يشبهونه أبداً .. كان أجمل وأصدق وأنبل

أبطالهن كانوا ماكرين وهن أمكر !!

ما هذه الحيوات يا صديقاتي ؟؟

بعد زخم قالب الكعك وفيض الدعوات وطيف الأماني الذي إنهال على العروس أمطرت الحقائب بالهدايا الصغيرة يتشبث بكل منها كرت يخبر عن شعور صاحبته ألحّ بعضهن على أن تفتحها وتنصلت بدعوى الخجل بينما هي مراعية لم ترد أن تخلق ولو لثانية شعوراً خارج صفوف الفرح للحاضرين فقالت " كل كلمة في هذه الكروت ولو كانت أسمائكن فقط هي هديتي و مثقالها واحدٌ في قلبي"

ولكن كعادة النساء بقي من يُصّر على الفقرة المسرحية فصل الباليه الاستعراضي الذي من شأنه الإسقاط بباقي فصول السلام ليتسيد بالذاكرة من هذه السهرة لذلك أحببت شطب ليلى له بسؤال عبث برؤوسنا وأسدل ستار الإستعراض لترفع ستاراً آخر يُعرّي ويبعث الحياة فيمن يعتقد أنه حيّ وهو يمارس الموت منذ ولد ..

ولد للموت يبحث عن حياة فيما هو ميّت

ألقت سؤالها : " ما هو الشيء الذي يشعركنّ بالحياة ؟!!! "

حاولن أن يقللن من جدية السؤال والتجول على مرافئ السخرية صدر الأمان الأول لتنجو مِن مَن يلقي بك أمام نفسك .. أمام حقيقة لو وقفت قبالتها لا تُحتمل سلامتك بعدها ولا سلامة خارطتكِ الصغيرة التي قررت سكناها يوماً .. أو ربما نقشوها في يدكِ كتعليمات إرشادية لكيف تبقى بعيداً عن الخطر .. لا كيف تبقى حيّاً ؟

قالت كارلا وعيناها مُعلّقة بليلى متجاهلة أصوت السخرية ومحاولات قطع طريق هذا الحوار وتغيير مجراه " كيف نشعر بالحياة ؟ ألسنا أحياء .. ألا يُفترض أن يكون سؤالك ما الذي يشعرنا بالموت ؟ "

ليلى : " لا .. أنا أعنيه كما هو .. ما الشيء الذي تشعرين به أنك على قيد الحياة ؟ "

كارلا : " ربما الطفل .. لو كان عندي واحداً "

هند إختطفت هذه الأمنية من فم كارلا توافقها : " نعم الأطفال أكيد هم بهجة الحياة ألم يقل الله أنهم زينة الحياة"

ليلى تهز رأسها :" لا لا ليس هذا ما أريده .. هلاّ نسينا الموضوع من فضلكن " نفذ صبرها

سماحة : "بلا جدبه انتي وياها بتقلكن شيء بيحسسكن بالسعادة مو شي بده يسعدكن لو العشاء فول ماكبس عا فهمكن هيك "

قلت : " صوت ليلى يشعرني بالحياة " وملت برأسي على كتفها

سماحة : " راح فلّ "

سماحة أحبت السؤال ولا لما ناضلت لئلا يموت بلا أثر !

" حينما يُقّبل أصابع قدماي واحداً واحداً وتلك اللحظة التي تسبقها وأنا أضع اللون على أظافري " قالت إحداهن فجأة !

أكملت الأقرب إليها : " حينما تتعلق عيون الرجال بي في مكان عام و أصطنع اللا مبالاة بينما تدق طبول دمي لتتراقص كل خلية بي .. أشعر أني على قيد الحياة .. يبقى هذا العرس داخلي لأيام تالية ومن ثم ينطفئ "

قلت لكارلا : " و أنتِ ؟ "

أجابت : " أن أكون حاملاً .. حقيقة أشعر بشغف لهذه اللحظة أصبحت هاجسي منذ فترة "

"كارلا نسألك عن ما يشعرك بالحياة الآن أو فيما سبق لا عن ما سيبعث الحياة لكِ !!؟ " قلت بلؤم

أكملتُ برتم اللؤم ذاته : "يبدو أن كارلا ليست بأحسن حال منّا بل أنهن أفضل فتلك نبضها حين تُلعق قدميها والأخرى حين تتلاحق أنفاس الرجال لحظة مرورها بهم باعتقادها أوقفت الساعة وأتت بعظيم .. هؤلاء لهاثهم متواتر فمن أمامك وخلفك كثيرات أبحثي عن حياة أقل بؤساً "

ليلى تلتفت إلى هند تسألها : " وأنتِ "

وتلك إشارة منها لإخراسي وكفّ فمي

ردّت هند : " الحمد لله نحن أحياء بكل نفس نأخذه بلا تكلف وجهد "

قاطعتها أنا : " جبانة "

بدأت تستغفر .. وتنعتنا بجنون آخر الليل وسفه المترفين كالعادة منفذ لتتسلل منه إلى هدفها الأول.. الهروب

قلت : " جبانة ،تشجعي وقولي ماهي أفضل لحظاتك .. ما اللحظة التي تشعرين أنها مُشّبعة بالحياة وكلما تكررت تجدد قواك ؟ كلنا قلنا وأنتِ أستمعت بخشوع .. ألم تستمعي .. إعتراضك أتى متأخراً "

قالت ليلى محاولة تلطيف الأمر على هند : " من حقكِ أن تمتلكي هذه اللحظة ليست إثماً بل قليلة الحظ هي من لم تعثر عليها وقد لا تعثر عليها أبداً لذلك سألتكن .. أردت ضوءاً "

هند بعد تردد وضعت هاتفها الذي تشاغلت به قليلاً مقللة من قيمة حديثنا لتقول :

" كثير .. أكثر من شيء

ولكن اللحظة التي يتجاوز فيها صالح الدين لينال رضاي هي أفضلهن ! "

أنا : " أووه "

سماحة : " قلتلكن قويه هالبنت "

ليلى والبقية دخلوا في ضحكات وأحاديث جانبية عن كيد النساء ونجوت أنا من الجواب الذي لم أكن أملكه حقاً في حال وصلني الدور، لم أفكر قبلُ به .. أريد وقتا وجرداً للحظاتي لأعلم فربما هذه اللحظة التي تعنيها ليلى مرّت بي وغادرتها ؟ وربما لم تمّر وكل ما يحزنني لا يجدر به ذلك مادام لم يستطع منحي هذه اللحظة النافرة ..من هذا الموت..

هذا التكرار .. السأم المتغلغل في أوردتنا ، إغتصب منذ زمن إرتجالنا ورمى بنا خلف قضبان خطوط لم نُسأل حين خُطّت .. لم تؤخذ قياساتنا حين حيكت فهي للجميع لم يُنظر إلينا فُرادى أبداً، كلنا نأتي بعلب جاهزة لا يفترض أن تجرؤا أحدنا أن لا تسدل ثوبا ضيقاً جداً يطبق على أنفاسها فحبذا لو أنتزعهم فتلك منة ومعروف وتخفيف علة من كثير متكدس وربما فضفاضا يغرق جسدها المهمل في تيهه، وجب عليها أن تهبط من رحم الظلام بلا طمع النور .. ألم تهمس لك والدتك بذلك ؟

ألم تخبرك عن الظلام هنا كيف يكون مُراً بلا إنتظارات معقودة بأمل الخلاص ..فالظلام عاقرٌ هنا مؤود الرحِم أزلي الحال فلا يرجى منه فكاكا .. ربما والدتك ظنّت أنك صبياً؟ مؤكد تحبك وستسّر هذا الأمر لك لتتهيئي ..هو خطأ الداية قد تكون في عوز ولا مفر من كذبة تدر عليها ما يكف خصومة تلك العصافير في بطون صغارها.

هل لحظة كتلك التي تعنيها ليلى توقد شمعة .. هل تعني أن تمتلك أحدنا هذه الشمعة وتفطَن لمكانها ..تخبئه داخلها وتعلم هي فقط أي شيء ينير هذه الحلكة و وقتما تشاء ؟!

غادرت ليلى قبل الصباح .. لم يُسمح لها بالبقاء أكثر وبلا إخبارها كانت سيارة أخيها بالخارج فلا يرجى الفصال فيما بُتّ فيه .. حلّ رحيل العروس السهرة باكراً عما كنا ننوي فتبعها الجميع .

أما أنا فقد حلّت تساؤلاتي في المقاعد الشاغرة بعد مغادرة أصحابها قبالتي ولم أستطع طردهم والصعود لغرفتي ربما علمت أن الهروب لن ينقذني منهم سيلاحقونني و يتقافزون صعودا قبلي !

لن أسابق فيما أقر بهزيمتي فيه سلفاً لذا إستويت على أريكة جانبية قريبة من القهوة لنرتشف ما تبقى من الليل، كان هاتفي صامتاً يكاد رأسي أن ينفلق من طبول صمته أحاول ألا أترقب منه ومضة ..نبضة تجتّر هذا البؤس والبرود من أوردتي ، الا ترفع راية بيضاء وتلقي في قلبي صوتاً غير هذا الصمت ؟

قطعة بيضاء ترفرف تتدلى لي من بعيد.. هل هي الراية أم هو حلم؟

كنت أصول وأجول بك بين يقظتي وصحوي .. فهذه الخادمة تناولني منديلا تعلن به سقوطها على ضعفي تقبض به لحظة لم أشعر بقربها مني لأنهض من جثوي .. أداري وأُدني من جفناي فيستران بللي.

إلتقطتُ عطفها ممتنة وقلت لها ذاك بسبب العدسات اللاصقة ..أنا بخير

هممت تساير كذبتي الهشة ..فدموعي كانت أقل شبهاتي .. فأي رقعة أعالج بها تزيد الطين بِلة، إرتحت لمغادرتها سريعا .

أحن إلى نفسي ..كل الأشياء فاعلة في سكب الألوان على أيامي ربما ألوان لا يدوم لها ثبات ولكن يُحسب لها أن ترفع نوتة في لحن تكاد تنسى أنك تستمع إليه ،تقفز تتأكد من أنك حي تزاول وتقاوم الرتم الممل برتم آخر سرعان ما يتكالب مع سابقه ويتحالفا في فريق من الأشياء التي تبحث بها عن بهجة ..عن تغيير

عن مهم يخبرك عن ماهيتك ليبقى مهماً لا ينضم لسبق لا ينتهي ولا يشبع من شراهة سلب اشيائي أثرها فيّ ذلك البحث عن السعادة هنا وهناك يبقينا أحياء يجدد العهد بالأمل بموعد نعقد الرجاء على أن يكون أكثر من مرة أولى ،أحن إلى قيمة السعادة المُمكنة فقابلية الدفع بيّنة ..أشتهي هاتفاً ..آلة تصوير جديدة بمميزات أفضل أنتظر والدي لأرسم عليه قصصا عظيمة عن حاجتي إليها لتتشكل سعادتي في اللحظة التي ينقدني قيمتها.

وفي أساور "Cartier " التي ضللت اناوب فيمن يشفع لي عنده بها .. مرة أمي ومرة جدتي ومرة أنا وهو في كل مرة يكرر أن بقيمتها سيشتري لي درزنا من أرقى وأشهر محلات الصاغة في "قبة رشيد" !

حتى أقتنع مُجبراً يريد الفكاك .. كانت سعادة حين ارتديتها ذلك الصباح في الجامعة .. عدت إلى البيت لأسند يدي على وسادة بجانبي وكأنها حبيبُ عمري المُغنّج بينما في الحقيقة أنا أريحها من جهد الحراك الذي بذلته يدي يومها وأنا أرفع شعري تارة وأركنه خلف أذني تارة أخرى حتى يشهدها من لم يشهدها من القاصي والداني في باحة الجامعة وأعتقد أني فعلتها !

كانت سعادتي مدفوعة .. أجتهد وأمكر بل وأعلم يقينا أني سأقتصّها أينما كانت .. أما الآن أنا مرتبكة كيف غلا ثمنها وطالت ساقيها فلم أعد بقادرة على الجري ونوالها كما كنا دوما أنا وهي .. تتشكل في شيء فأطلق ساقيّ للركض خلفها حتى أقع عليها .. كيف يمكنني الآن مضاهاتها بينما هي ليست على مد البصر.

بدأت قافلة من الوخز بالدبيب على كتفي الأيسر في سيرها نحو المفترق الصاعد لرقبتي وكان جسدي متبرما منذ وقتٍ ثقيل حاولت نفض يدي ومطّها صعوداً وهبوطا لعلّي أبيد التشنج والألم اللذان أخبراني بهذه المجريات فيّ ،اندلق الضوء من فم الغرفة الشرقي لم تكن الخطة أن أسلم نفسي للنوم في الدور السفلي وعلى أريكة لم تحاك لهذا البذل والتمدد الذي أبتغيه فعقفت نفسي على نفسي كضفيرة لففت يمناها على يسراها في أولها وطويت آخر خصلاتها أسفلها .. حاولت النهوض وكان رأسي يحمل نصف وزني لم أستطع جرّه من مُسند الأريكة جانبي بزواياه الحاده رغم أني فرّقت بيني وبين حدتها بدس مسند قطني صغير أسلمته رأسي بإهمال نلت جزائه الآن !

حاولت فرك عيناي فشعرت بخرفشة حارقة أكاد أسمعها!

حاولت فتحهما قليلاً فأصطك جفناي بقوة أكبر في مقاومة حقيقة لزجّي بهذه العتمة يلكزني الضوء ،يؤلمني هذا الشق الذي أبتلع عيناي.. يغلق نفسه بشكل أكبر وأسرع ، بدأ هذا الرفض يؤلمني إعتدلت بجسدي لأستوي على الكرسي نسيت أمر التشنج ومفاوضات السُلم المعقودة من مطّ و إسترخاء يسبق لحظة التسليم بيوم لا تشعر به إلا بهذه العضلة المتجهمة ولا تُحلّ بهيّن .. الأمر أكبر الآن أنهما عيناي هل أصبت بالعمى ؟

هل تتكالب أجفان العُمي عليهم هكذا ؟ هل يُسرق النور بتحالفات ممن ينتمون إليك ؟

عدت أفركهما أحاول غضبا أن أخلق الفرقة بينهما لأنال حقي ..لأرى هذا الذي فاض وغزا رأسي هل استباحوا النور نكاحا أم إغتصاباً كيف نشف النور مني أشعر باليباس ما زلت أفرك عيناي لعلّ قطرة باقية تنبثق وتدفع برمق يوصلني للباب .. الصمت يخرج لي لسانه الآن كل هذه الأصوات العالية كانت بكماء بحضرة النور!!

أنتبهت الى أني تحت إبهام العتمة أستجدي النور الذي كان .. ونسيتُ يداي .. نسيتُ ذخائري كلها بل لم أتنبه لهم رغم أنهم استنفروا لإنقاذي .. لانتشالي من تحت هذا المسنون الذي يسحقني الآن ، يداي مسحتا المكان قبلاً .. يصرخان أنهما هُنا ..أنهما هُنا رغم إهمالي لهما، رغم ركن كل مالا نرثه ،ركن كل ذلك الذي لم نستحلبه من صدور أمهاتنا .. كل مالا يتلوه عرّاف المدينة

فمع كل جفائي وكسلي فقد هبّا لخلق النجاة.. لتلمّسها وإن لم أراها !

قدماي لم يكونا على مستوى إستنفار البقية من جسدي التي علمت اليوم بهم فلِمَ أنقب عن شيء لم أعلم أنه هُناك؟! فهل نغدو لعدم ؟.. فعصا التُكلى تقينا المشّقة وكلما ثقلت الإتكاءه ابتلعنا فاه الأرض أكثر يعيد تدويرنا فيدر ربحاً من سوادنا هناك في سوق حالك يداولوننا ومن ثم بذات العصا التي حفرت لنا نُجرف تحت سجادة مهملة لا نقوى على الزحف بينما هي تجثم بجبروت لا ينفك تعتلينا فنحاول الخلاص ونتوه بين أنسجة بالية متشابكة شائكة رغم أنها ليست إلا خيوطا رفيعة إلا أنها مسننة تستطيع الفتك بك بسرعة خاطفة ،تختنق فلا يغريك التبرير بل البقاء يسترق كل خلية بك فتداهن المكان تستلقي ..تتنفس ما يمكنك القبض عليه بلا شكاية. حتى ينادي المنادي ويئن السوق فيحين وقت حضورك وتشعر بذاك العصا الفاجر يرفع من صدرك الثقل تفرح تتعلق بأمل ليحملك على متنه لسجادة أشد وبالا وإنما ليدسك ويحُمّلك وزر أمرها و نقاصص بخطيئة لو استرقنا النظر للنقش المحفور على العصا لوقعنا على المفتاح !

نتقافز عن البيض الملقى في الطريق نخشى الحالتين أن ندهسه فنوارى وجُل الخشية أن نتجنبه فيضيع العمر قفزاً نداهن به ما كان قشرة جِزيتها ركلة لا قفزة ، كدت أهبط من علو إلتف على قدمي سلك كهربائي تذكرت مكانه حالما زحف إلى ساقي توازنت سريعاً تحسست الحائط لأقع إليه .. ما الذي يحصل ؟

فرّجت عيني بلا تنكيلها لأختبر الضوء فكان الألم جواباً ، هذا الوخز مستمر يتنقل في جفني العلوي حاولت جسّه فكان بحمولة يريد قيئها ..تحسسّت أكثر وبلحظة تذكرت أنها العدسات اللاصقة!

لقد نمت بها .. لم أكن ذات دراية علمت أن عليّ الحذر بالتعامل معها ولكن أتى الأمر سريعاً، فكرة أن أرتديها ملاذٌ هجعت إليه لأهرب من قراءة البنات لما أحمله من حقيقة الحال ،فصببت هذا القناع على عيناي ونسيت أمره تماما.. بهدوء وراحة العلم بسبب ما كان قلبت جفناي بقسوة يبررها الخلاص عثرت عليهما متقوقعتان أعلى جفناي وبرأسي يدور سؤال هل كان بإمكانها التسلل لرأسي والعبث هناك ايضا ؟ أم رُحى رأسي لا يُهزم بهذه الضئيلة التي نالت من بصري .

لم يغادرني الألم وإن هدأ روعه بعد أن أزلت ذلك الخازوق من عليه .. أستحضرت خارطة منزلنا وعقدت هدنة مع الخوف و طن الأسئلة التي تتساقط إلى حلقي فتئول إلى نفسي وترعبها فهل أنا عمياء الآن ؟ هل سأبقى كذلك؟

هل ستكون الحياة أسهل ؟ هل سألغي الألوان من حياتي .. الأفلام .. الملابس .. الهاتف ؟

ستبقى الموسيقى .. ستكفي ..

بل هي فوق الكفاية قد يكون ذلك نصراً لها لأعتني بها كما يجب ..وايضاً الأسئلة لن ترحل .. أوه لن يقيني الظلام هذه الأسئلة أعلم ذلك بل ستفيض أما أن تغرقني أو أتعلم السباحة.. يا آلهي !

_" يمّه "

بصوت مُهدل .. مخنوق .. أنادي

أشعر بمن يجري نحوي .. يقتربون .. يلتقطون يداي من الهواء .. أمي تحتضنني !

(7)

كما أن النور حق و الحزن حق و الموت حق فالحياة ايضاً حق فحين دق الناقوس بصوتهِ، رفّ قلبي فزعاً مبعوثاً إنتفضت داخله حمامة لتنفض ببسالة وجشع للحياة حُلة الإحتضار التي حشرتها بها لزوماً .. !

في اللحظة آنها كانت قدماي تقعان على خطوة سابقة يعودان أدراجهما بلا ولاية مني قبضت على الباب المشّرع لي لأختبئ خلفه، لا أرى فكيف أعلم إن كان شهِد هروبي أم لا، كان الصوت قريبا جداً مازال يتمتم بالتحايا مع والدتي .. لم تخبرني أن فهد من سيقلّنا أخبرتني أن السائق لا يجيب اتصالاتها وأن أبي قصد الرياض باكراً .. إختفت للحظات وعادت تساعدني على إرتداء العباءة و كنت مصرة أن أرتدي النقاب رغم أنه لم يعد بذا قيمة فقد كان نافذة لعينان مقفلتان ..

علمت أن السخرية متشكلة بهيئتي الآن

ويليق أن أُسجّل كأول منقبة تتجول وعينيها في غمض.. مقفلتين !

بسرعة حللت عقدة نقابي وأعدت لف طرحتي وألقيت أسفلها على وجهي بالكامل كيلا أكن سخريته هو، فكل العالمين في كفة لم أعَنى بها وبما سيلمزونني وهو في الكفة الأخرى التي تؤرجحهم فتبطش بهم خفتهم إزاء هذا الذي يقبع خلف الباب .. كيف تتجرأ أمي على زجي بهذا الموقف كيف لم تفكر بشكلي أمامه فلو هربت فأنا طفلة سخيفة متقرفصه يحجبها عنه باب موارب في أي لحظة قد يدلف منه ويكن قبالتي ولو قبلت وذلك الأرجح أن أذهب معه فليس هذا الشكل الذي أريد لقائه به يا أمي !

ضعيفة ومبعثرة ومرتبكة ولا أستطيع السير خطوة واحدة بلا اتكاءه تجرّني لوجهتي، اينقصني أن أُسحب الآن ومنه ايضا ،بقيت متجمدة في بقعة الأمان لذت بها حجابا عنه.. هل أغلق هذا المصراع المنفتق عليهما وأعود للداخل بلا هداية رغم أن مأزقي الأكبر أني بلا هاتف متنصلة من كل شيء متشبثة بأمي ..

أتاني صوتها ينادي كانت تقترب

بادرتها _ " لن أذهب معه كيف تتصلين به !! "

" وكيف يتجرأ هو بالحضور ؟ "

قاطعتني _ " أتصلت أنشد أخيه ولكن كان هو الى جانبه سمع بالأمر وتفاجأت به مثلك تماما "

كانت تبرر بينما صوتها قد فضح فرحها به حينما رأته، كان كمينا من أمي لا أحد يعلم مؤامراتها بقدري ..ولكن لم تكن تهتم يوما بحياكتها علينا .. تشنجت رافضة الحراك ،وايضاً لم أستطع حسم الموقف وجزّه والعودة لداخل المنزل.

_ " اوششش "

هذه كلمته الأولى لي بعد كل هذا الموت بيننا !

لم يكن يوشوش لي بل كان يخرس رفضي في أن أمنحه حيازة يدي مرة أخرى ..

مرة أولى بعد العتمة وأخرى بعد تلك خاصة النور .

إنصعت لخيار أن يوصلنا هو للمستشفى كنت مؤمنة بأنه لن يتزحزح عن ما يريد .. علمِت أن الغور لم يكن بذا قاع سحيق فلم يتمخض الصدى الذي يرتد إليك بعد .. وكنت أظن أننا كذلك !

بالطبع لم يعترضا رفضي الكرسي الأمامي جانبه .. ملأته أمي بعد أن تصلبت أنا في المقعد الخلفي وضعت يدها على رأسي تقيني حادث آخر قد أودي بنفسي إليه فقد أستحكم الحمق مني حين تولى هذا السائق قيادة قلبي .. عقلي .. حياتي .. كل أمري ولم أعد أصلح حتى للقرفصة بالخلف لوحدي .. حين وصلنا المستشفى ترجل هو مسرعاً أسمع بابه فضّاً حين أنصفق خلفه، كانت اللحظة التي تفصله عن فتح بابي سباقا قفزت به على أمي أسالها " ستنزلين معي ؟"

هل تباطأت بالرد ليجاوبني الوقت الآزف نيابة عنها ؟ أم هي باردة كعادتها ؟

ليس الآن .. ليس مناسبا هذا الخندق لنضّج بجدلٍ لا يفضي بنا إلى شيء .. هو العادي ولكن أنا في الظلام أغرق هناك وهذه الشمس اليوم ترمي نبلها فوق جفني فيتقهقران أكثر .. لست بمزاجِ لألهو

لست بقادرة أن أؤخذ به عن أمر نفسي !

أزِف الوقت فعلا وها هو يقبض على رسغي .. إلتفّت أصابعه بلا وجل ولا إذن هكذا ألقى سنارته فغمزت له بلا ترّقب ولا تمنّيات رضا ينال بها صيده ،خرجت من السيارة توقفت متصلبة مستوية كلوح خشب أشعر أني ألتقمته فحّل مكان عيناي ليظهر شيئا كنت أظهره بهما .. كنت أعلن الحروب منهما وكان يُهزم .. هذه الهيبة مغلق بابها الآن فأستنفر جسدي ليتخشب لعلّه بذلك يرث الخلافة ويدير المعركة التي كنت أنويها في لقائي الأول به ..لم يخطر لي أبداً أن يكن هذا حال اللقاء الموعود .

في أوج نضالي لئلا أكن أقل مما يفترض أن أكونه .. و ربما أناضل ضد الفرح .. وقد أكون أناضل ايضا ضد الحزن ؟ هل لا بد أن يُبذل الوقت ويراق حتى أتثبت مما أنا أناضل حقا ولما سيئول بي هذا النضال ؟ !

تجاهل تبّرمي .. وشد ذراعي باتجاهه بأمر لم يتكلف بتهذيبه .. أتاني هكذا : " أوششش !!

بعد بضع خطوات ولأني حمقاء حين يكون الأمر عناداً فأنا أتصدر القائمة به كنت قد ربحت يدي منه واكتفيت بأن أكون محاذية له .. أِشعر بجسده وأعقد خطوتي إزاء خطوته بهذا كنت آمنه قليلا حتى دسّ يده في كف يدي ليهندس من جديد كل الخطوط التي وشت بها عرّافة متطفلة تلبست كل من أعرفهم لتقرأ لي في كل مرة وكل مجلس ما سيحصل وما سيغدو وتكاد تجزم دوماً أن الطرقات بيننا لن تتقاطع أبداً وها هي .. إستعمرت وسحقت كل الفُتيا والتكهن المعقود بنواصي مجالسنا تلك

لا نؤمن فيكم بقدر إيماننا بإعتقاد صديقاتنا فيكم !

توقعاتهن مع كل فنجان قهوة فما بين فنجان وآخر قد تنسخ رأيها السابق بعد وشوشة قريبة همزت بها لتَغيّر مجرى الرهان لما سيكون ختام قصصنا معكم .. كتوقعات لحلقة أخيرة في مسلسل لا يأبهن به بقدر اهتمامهن بسكب ما يشغل حيز الفراغ ذاك الذي بين رشفة القهوة والرشفة التي تليها .. فقط

فالكل سينفض هذا الهرج ويتدلى لحياته الأصل، حاذقة من تعرف الخيط الحاسم بين لهو صديقاتها وذاك الخاص الذي لا يباح للآخرين حتّك أن تؤمن أو تكفر به وإلا فسيسهل إغوائك للعيش بقية حياتك بأنف أحمر ضخم وشفاه مقوسه لأعلى بأمر الرائح والغادي تُشيّد بك مسارح تكوني نجمها حتى لا يبقى متفرج يحضرك ولو مجانا !

_ " وصلنا الدرج "

_ لم أجب ولم أكابر فلست غبية لهذا الحد أيضا ليس طمعا بيده التي أشعلت وجيب قلبي وبات كل خوفي أن يسمعه ويعلم ما يمكن فعله بي بعد كل هذا الجبروت الذي إعتليته منذ أشهر ..كل هذا الصمت الذي سقيته إياه بمهل ليتجرع العذاب مضاعفاً .. ليسأل وينتظر .. لينتظر ويرجو .. ليرجو ويتعطش .. ليظمأ ويراني في كل الأشياء .. سراباً .. يتلظى ويلات فقدي .. لا يصّدق الفقد .. ولا يكفر بالأمل .. يبقى هكذا

لذلك كان صوته الآن منكسراً بعد انتصاري قبل قليل عليه فليست العتمة بقادرة على أن تثني من ظهري أمامك، صوته قيامة في صدري أثار بها فوضى خاشعة رغم كل الضجيج الذي في مسرح رأسي في آن معا!

لكن رغم كل ثورات اليباس والغرق من زلازل وفيضانات وبراكين الشوق والغضب ، الحب والتيه ، التشنجات والأصوات التي تتعالى داخلي وتلك التي تطرد وتُبقي تبعا لذاك المتسّيد الخفيّ ..بهذا الظلام أجزم بالأمان الذي تلهفت إليه بالنور ولم أقع عليه !

لا نداهن بعض الآن لا نتزلف ولا نرى بعضنا وقد لا يكن مرة أخرى ..ربما نكن ذكرى ..لما لا

الا يسبق الموت لحظة نشطة؟ يعتقد الرائح أنه باقي .. وسرعان ما ينهار هذا الصحو إلى عاصفة تلقي على الشمس شهقتها الأخيرة .. أريد أن أرى عينيه .. خوفه أو رجاءه

كنت أبطن له ممارسات أستشّف بها أينني منه؟ وإلى أين يمكنني التمدد فيما أنوي به

هل كان يدعو الله أن أكن برداً وسلاماً .. فذهب الله بنوري ؟!

طمأننا الطبيب على حالة عيناي فقد كانا على شفا الفقد وتلك الأريكة التي ململت جسدي و ضاقت به لم تكن إلا لطفاً و نجاة الله على هيئتها فلو أسرفت في نومتي الشقية و كابرت على كم النُذر الموكلة إبلاغي بهم فالأوكسجين ضلّ سبيل الوصول الى أوردة العين بعد أن أسلمت جفناي للنوم وهما يحتضنان هذا البلاستيك كغريب آويته بلا ظن أنه سيعبث بي حين أغفو.

خرجت بضمادات كبيرة أسدلت إلي الراحة من وخزات الألم التي تولتني منذ استيقظت ..مسكنات ومحلول بتعليمات مكثّفة تلاها علي فهد بلا ثقة أن مرة واحدة تكفي رغم أنها عبث بعد الأصل خاصة الدكتور وذلك بعد أن بدا له قلقي أن لا أتمكن من رؤية صديقتي بثوبها الأبيض بعد ثلاثة أيام من اليوم.

بعد ذلك، لم يكن فاهه كريماً بأي كلمات وكأن اللغة في سنينها العجاف !

بيضاء بصفرة تغريك على التمعن أكثر برقتها، فتحة عنقها ضيقة تتسع أكثر بمسيرها نحو كتفيها وعلى أحدهما يستقر شعرها المغنج والمطعم بلؤلؤ منثور على طولهِ المطعج بتموجات فاز بها واحد فقط ليظهر الأخر مكشوفا يبرز رقة ملامحها لتتساءل هل يعقل أن هذا الملاك حارب فيما لم نعتد الحرب لمثله وأمام من ؟.. أمام جيش عتيد ذا تاريخ حافل معها بطقوس و محاولات تهميشها وتطويعها، وجِلة مبالغة في مط ظهرها على كرسيها الأبيض ذا المسند الواحد جانبها فمن الجهة الأخرى أمتد حتى مال لأسفل مُشكّلاً التفافة جميلة غرس بمحورها زر عملاق من مخمل البنفسج ..

عيناها في عمليات تحرّي متتالية فيمن ولج وخرج من الباب قبالتها، حين أتى دوري أسقطت كتفيها فأرتخى ظهرها الممشوق من أول الليل عنوة، قبّلتها وهمست لها بأمنية السعادة المتقادمة .. فلا نرتجي في هذه الليلة كالتقادم فيما نشعر به الآن. أردنا أن نزيد في الثرثرة ذات الأثر .. ذات الحب .. ذات الطمأنينة ولكن كانت زوجة عمي بالمرصاد نفضتني بعيداً بنبرة مغلفة بشكر متكلف أستلمت فحواها وهربت لصالة الحضور كغريبة، تّحفل صديقتها في ليلة عمرها من زوجات أخيها التي لطالما كانت الوشاية تنافسا بينهن فمن توصل الفتن جهراً وسراً للرجال تحظى بالسبق وختم الصلاح كجائزة تنتشي بها حتى تسبقها أخرى بما يفضي على حصادها فتنطفئ وقتاً ..!

لأول مرة أخرج باكرة من مناسبات عائلة والدي لطالما كانت تهرب أمي بعد ساعة ترفع بها العتب والقيل والقال التي سرعان ما يؤججهما مرة أخرى خروجها الباكر. تعب فمي من التلطف والزيف فقد كانا مع صمت المكان بكميات مضاعفة فهل يعقل أن يكون الصمت فاجراً كحضوره في بقعة يفترض أن تكون للموسيقى ..للرقص كيف يمكن للمّار أن يستوضح هل يقام هنا عُرس أم عزاء .. أقلها يطمئن حينما يجفل من سؤال مارق وفمه منتفخ باللقمة عن ماهيته هل يعزي أم يُبارك .

أنتهى هذا اليوم نسبة إلّي .. ثقيلاً لا يرجى ممن رأيتهم حياة فبورك لك يا ليلى هذا التملص.

هذه المناسبات إن أوتيت لقضاء علة غير الفرح الذي نُصبت به فسدت وانتقض أثرها في نفوسنا فلو قامرت على أن تضحك هذا المساء أو لن تعبس على الأقل ولو لمرة واحدة لعلة كعلة حضورك عُرس أقربهم إلى قلبك أو ربما يوم عيد رتبت له قوائم مسبقة من التأهل وتشريع أبواب السعادة ومن ثم يقبضون عليك عابساً مرة ومرات ! .. حينها ستتهذب أخلاقك ولن تجازف على طاولة قمار يشاركك فيها من لا تعلم يقينا كيف هم مع السعادة ؟ فهناك من يفر منها فرارك من الجذام ! لا يتهندمون لها بل لبترها وغلبتها لذلك لن تقامر توبة على أي مساء كيف سيكون ..هكذا ستعتاد ..ستنتقل لمراحل الإنتظار .. التأويل .. الترقب .. القفز فوزاً أن أتممته بلا نصرة هؤلاء المتجولون بالمنغصات ليسوا باعة .. بل تطوعاً تنتشي به دواخلهم الحالكة وتطيب كلما حفروا قبراً جديدا يزداد به فصيلهم وتكن رسالتهم ديمومة لا ينجو منها إلا من كان من أصلابهم .. سمع ورأى .. ثم تحيّن الفرصة وأقتنصها ليُبعث بعيداً عنهم .. بعيداً عن قبورهم .

كلما حدثتني ليلى عن بؤسهم وكيف تلوذ بنفسها عنهم في أي واد حتى تتصالح مع نفسها وتدّثر نوبة الخوف التي تعتريها من فكرة أن تتحول بلا إرادة وعلم منها.. بلا قرار تكون شخصاً لا تحترمه ..لا تحب أن تصبح عليه يوماُ فتخرج إليهم وقد قلبت تلك الصفحة لتعيد رّص وترتيب وتنسيق ومونتاج ما تشاء .. حتى تخطّ في لوحها ما حملها على البدء في المرة الأولى حتى باتت تحاول التصالح مع كل شيء تحبه كل لحظة .. كل ثانية تعيد تذكير نفسها بنفسها وكأن ذاكرتها ستدلق بفعل أقرب الناس إليها خلسِة وعن تربص تعبت من تحيّنه !

أن يبتزك الآخرون عما تكونه ..عما تريده لكونك أنت سيوقظك دوما ويحيلك إلى صوتٍ لا يهدأ داخلك لا يمنحك لحظة تغفو .. تسهو .. تتصرف بعفوية .. فينقضّوا لاصطيادك .. حرّي بك من أجل البقاء الذي تنشده أن لا تكن صيداً سهلا .. وإلا هِدهِد شراسة يقظتك .. وغامر على أن تكون كما أنت أو كما يسعون أن تكون وكلاهما خندق تحيا به كبربري لا يحفل أن يهنأ العيش ولا يعرف لذلك معنى حتى يرتجيه !

بورك لك هذا الفكاك يا صديقتي .. بورك لك هذا الصبر الذي عبث بشروقك ولم تتوقفي عن كونك ليلى التي نعرفها .. لم تتوقفي عن العبث بقيدك ..حتى حللته و أطلقتِ ساقيك للريح فكل خطوة بعيدة عن سماواتهم الملبدة ستنقشع بها غيمة، بل غيوم وستصحو سمائك بإذن الله ..

يارب أرسل أفراحك لتشرق بروحها .. لتبني أعشاشا بصدرها تهجع إليها صباح مساء .

هذه المرآه إثم نرتكبه في حق أنفسنا تنهب من أعمارنا وعلى مرأى منا ..بمباركتنا !

المرايا ثرثارة تتصيد الفرص لتنفجر في رأسك الأحاديث القاصي والداني منها وتقفز من واحد لآخر ومازالت عيناك متشبثّة بها وكأنها تسّر إليها بـ : هل من مزيد ؟

تحرّض هذه الثرثارة على قيء مالا يجب أن تؤتى أرضه ومالا يجب وطء لغمه ..

كيف تثير ما تعلم أنه قد يحيلنا إلى شظايا ؟

تنّبهت لذلك لأفض إشتباك عينّي بمرآتي وعلى عجل أكملت رفع المساحيق عن وجهي لأختبئ نوماَ أغلق به هذه الليلة الدهر !!

نمت كما لم أنم منذ أزل .. بلا إبتلاع مبررات هذا الكرم وتدللت في النهوض رغم أني توفيت حقي منه اليوم وفضت ،أشعر بأسنة الشمس تتسلل بخفة وخجل أول الأمر حتى تمادت بتبذيرها وأشعر بها متربعة لا تقوى على حمل غطاء عيني حتى تتولى أمري ايضاً وتقرر بالنيابة ساعة إستيقاظي . تمرغت فوق وتحت اللحاف لا شيء يضاهي شعور الراحة لما ومما وكيف لا أعلم .. لا أشعر إلا بها .. ولأن الشيء بالشيء يذكر أيصّح أتصالي على العروس أم أنتظره منها لئلا أكن عذولا يقتطع لوحة فاتنة وجميلة ؟ سأنتظر .

عادة الجو هادئ ولكنه هادئ بغرابة اليوم ..جبت البيت بحثاً عن أهله وكان خالياً ..

مع أن هند باتت ليلة البارحة عندنا وأمي أين ستخرج في الثانية ظهراً .. ؟ !!

حاولت أن أقاوم فضولي وأعيش اللحظة المغرية بتناولها لوحدي فالقهوة تتوسط غرفة المعيشة لم تمّس بترتيب فناجينها وآنيتا التمر والقشطة على أتمهما !!

أدرت الترمس المكروب وتيقنت من أن هناك أمراً مهما تجاهلته فهو على عتبة الوقت سيدلف شئت أم أبيت .. أسلمت مقاومتي ورفعت سماعة الهاتف لأطلب هند .. تأخر الرد

تمتمت بسري أن الحمد لله .. عملت ما عليّ

رفعت فنجانا لأصب لي قهوةً أشتد سوادها رغم سخونتها .. هو الوقت حين يشيخ بها، إذن هذه قهوة الضحى لأمي لا تتجاوز الحادية عشرة دائما دون أن تبتدئ يومها بها ولا يحب التمر مغموساً بالقشطة البيضاء غيرها هذه الأمور مُعلّقة بقائمة طويلة عنها تعتقد بل تجزم هي أننا لا نملكها عنها .. رن هاتفي .. هند تتصل

تحية موجزة باردة .. لتلقي بهمس وشاية تكلّفت الحزن بها : "جدي موسى مات "

لم أعرف ما يقال .. أكملت هي : " اليوم الفجر مات وهو نائم الحمد لله رحل بأفضل الأوقات وأبركها ويقولون أن إصبعه مرتفع .. الحمد لله .. كانت تقول أشياء كثيرة تتلوها وكأنها لم تكن المرة التي تمارسها هذا النهار سألت عن أمي لتقول : " أنها طيّبة الحمد لله لكنها لم تبكي .. لقد منّ الله عليها بالإيمان والتوكل لكن يصّرون عليها أن تفعل .. لاحول ولا قوة إلا بالله "

أقفلت الهاتف بعد أن سألتني الا أتأخر بالحضور فالعزاء سيكون ببيت جدي الأول ..

بيت والدة أمي وليس بيته الآخر "بيت السورّية "

ما هذا العمر الذي يقلبنا بين الأبيضين يدللنا البارحة بطرحة بيضاء واليوم يشّج رأس الفرح في مهده ويلتف لحدا على جدّي .. ألم يجدر بك يا جدُّ التريث ولو يوما؟!!

لطالما وقعت على ضوء وسلبت الضوء ضوئه ليضمحل في عتمته فيُلقى في حاوية الهامش حين تسرقه حيزّه وهل تستطيع ألا تكون كل الأعناق محسورة إليك .. مرتبكة متودده لك عيونهم مصوبة نحو عيناك والحالة أملُ وصالٍ لعلّك تجود بتعليق أو كلمة شكر وربما تكن كريماً وتمّن بسؤال عن الحال والأولاد .. يتحلّقن خالاتي حولك من أرحام كثر يوحّدهن التمسّح بك .. الرجفة في أوصالهن من هيبتك لم يكن الطريق إليك مغرياً لنتعنى بذلك تكلفته بل أخترنا كأحفاد أن نكن عابرين في حضورك لا نجاهد في رضاك ولا نبتغي منك نظرة كتلك التي يقتتلن بناتك من أجلها .. لا بد أن هناك تاريخ حافل صنع هذا الذي نراه نحن ولا نجد له مبررا يشفع أمر الرجفة والمبالاة المتضخمة جدا حتى باتت منغصّة لنا .. فحين ينادي المنادي: " بأبوي موسى جا " يتجلجل البيت وينتفض من عليه و يستوي المعوّج ويستقيم المرتخي وتتحول وجوه الغاب إلى فراشات مضيئة يحمن من حوله كلن يرتجي حمل شرف خدمتك وتلك الصفوف المنشّقة تلتحم يتراّص المتخلف منها ليسد الثغر حتى لا يلحظ هذا المسّن ويوقع ويلهُ عليه .. بلا نورِ لما ولماذا وماذا يحصل ؟

فحيثما يجب أن تكون كن .. لا يبرر غيابك ولحمتك أي حق أو باطل ! هكذا عودّهم هكذا اصطففن من حوله ومن يعش بين هذه الصفوف يعلم كم حزبا تشتتن وكم حلفا أسسن وكم شقّا يختبئ خلف هذه اللُحمة يا جدّ !!

خرجت أول المساء على كره لا أستطيع إلا أن أتجاهله .. ارتديت قطعة واحدة رمادية اللون تنسدل حتى الوسط من ساقي .. في الرواق المؤدي للباب الخارجي على عجل وأنا أضع قدمي بأول حذاء صادفني وكان برأس مدبب غير متكلف ولون أسود ذا كعب متوسط .. راودتني بإصرار فكرة أن لا يليق لهذه المناسبة ولكن قررت خلعه قبل أن أدلف هناك وإن كلفني أن اقذف به لباحة الجيران على أن أصعد مرة أخرى لم يكن المزاج مهيأ لهذه التنسيقات مع أن قطف ما يقرب منك لن يحيلك للتجاوز ستحاسب شئت أم أبيت .. دخلت مرتبكة حانقة على التوقيت مشغولة أريد لقاء أمي والأطمئنان عليها .. أمام الباب الرئيسي لم يكن من فسحة تتيح لسيارتي أن تعبر فركن السائق بعيداً على مسافة ثلاثة إلى أربع بيوت في الشارع نفسه قطعتها مشياً وإثم هذا الكعب يتدحرج قبالتي وكل دقة على الأرض توبخني كيف تجرؤين؟!

على أقتراب رأيت سيارة فهد ولو كانت حسرتي على هيئة هذا الكعب لغّزت هذا الرصيف وغرزت به ألف غرزة بحجم ما شعرت به ، تمثّل وجهه بكل الرجال الآن المبثوثين بين الباب والسيارات المعترضة في منتصف الشارع ،خضت المتاهة في الإلتفاف بين السيارات حتى وصلت الباب بعد شقاء

كانت الباحة الخارجية الخضراء شاهقه ونضرة وكأنها لا تعلم عن موت صاحبها أستدرت عن يمينها لأصل للباب الشمالي الداخلي الموصل لقسم النساء ولملحق الخادمات والمطبخ الخارجي الذي يضّج الآن بهن يحتفلن بأي اجتماع يتيح لهن اللقيا والسمر بغض الطرف عن سبب الفرح خاصتهن وإن كان وليد حزن أسيادهن ! لا أنكر أن مظهر الزحمة التي تعجّ بالمكان والأصوات الجذلة وإن لم أفهم لغتها تثير الحسد تمنيت أن أختبئ بينهن على أن أدلف هذا الباب .. تذكرت الكعب فمطيت عنقي قليلا لتراني "ماري" خادمتنا فتهب مسرعة إلي .. خلعت حذائي وسلّمتها عهدته حتى أخرج وايضا عباءتي .. استويت مططت ثوبي الرمادي وكأنه في هذه اللحظة أصبح أحمراً .. ربت عليه بشكل تلقائي حتى أسفله لأشهق وتشهق ماري كصدى يؤازرني : "اشفيه ؟ " كانت فِرحة لدرجة اللطف فهي تسأل بلطف يخرج من أقصى قلبها الجذل .. كنت رأيت "التاتو" على جانب ساقي خاصة الحفل ليلة البارحة ، كيف أبرر الآن اختيار هذا الثوب القطني الملتصق بي والمنتهي حتى هذا الوشم فلا يعقل أن يكن فعل الصدفة .. لن يبالوا لأي تبرير !

دعوت الله في سرّي أن لا تلاحظ أمي وليذهب البقية للجحيم هي صدفة اهتزت فسقطت لي بهذا الشكل الذي لم أتعمد خلقه .. لن أحاول الغضب فيما رُتلّت علي النصائح يمنة يسرة .. أنا متأهلة الآن فقد لامست حافة الشبهات وأستحق كل غزو سينال مني ويقتات من مزاجي.

" الله يعين " .. كنت أتمتم بها وأنا أدلف من ذاك الباب الشمالي ذا النور الأصفر !!!

الجو هادئ أكاد أسمع حفيفا يعلو ويهبط لا أحاديث متصلة في طريقي القصير نحو أبنة خالي أول السلسلة المبعثرة اضطررت لجسّها من كتفها لتنتبه لي، طويت المسافة بيننا وأنا حيرى هل أعزيها أم تعزيني وكلانا وقعنا في هذا المأزق الذي ظهر على شاكلة جمل غير مرتبة ولا صلة بينها .. حتى بتنا نتسابق من يسبق الآخر ليسقط عبء الحيرة تلك و كان الحال مع بقية الحضور .. أمي ليست ضمن هذه المجموعة التي لا ناقة لها ولا جمل بأمر الميّت غير أن أسمه مدون بخانة أخيرة من أسمائهم وآخرين حتى هذه الغير لا يملكونها فلا يلام عليهم التململ والتنصل إذن من حق التعزية منهم وعليهم، فهل يكون العزاء إلا لذو فَقد ؟!

كان هناك موكب بدا لي أنه يسابقني في العثور على أمي بين هذه المجموعات النسائية المتفرقة والموزعة بين الغرف .. ولأنها لم تكن كما عودتّنا أن تكن لمحتها فوراً هناك جميلة نضرة تجبرك على أن يرتّد نظرك إليها وهو توّاق لمزيد رغم شحوبها وحزنها الهادئ تجلس الى جانب جدتي التي أرتدت اليوم وجها لا يشبهها أبداً سقطت منه ابتسامته أصل خَلقهِ وكرت التعريف الذي علقتّه الحياة على مُحيّاها القمري هالتها تُلّطف حشرجة جدي في نفوسنا، تلقي فتات الخبز للطيور بإسمه، وتزرع آنية الماء البارد سبيلاً في كل زاوية ومنخفض يسبقهما نيةٌ زلال خالصة من القلب أن يكن الأجر لموسى ، زوجها وشريك الحياة بمرها وحلوها رغم أن مرها غلب على حلوها كما نعرف، لا بُد أن هناك مخبأ سرياً يعبر بها جدي منه إلى حيث يدللها ويمتص كل المُر والسم الذي يذيقها إياه أمام الملأ فيعودان إلينا هو كما عهدناه يشهر صوته سيفا فيخنعن نسائه ملبيات وهي تعود من ذاك المخبأ راضية مرضية حمّالة أسية أكثر وأكثر وبلسان أكله الطير وأبقى ابتسامة هنيّه سمِحه تنير وجهها الصبوح في بيت جدي الحالك بأحداثه و معاركه التي لا تنتهي حتى وإن كانت لا تطفو أبداً أمامه ..ومن يستطيع ؟

ترملت جدتي .. ترّمل القمر .. ستكون جُرماً لمن ؟

قبّلت رأسها على مهل دعوت له بالغفران ولها بالصبر وطول العمر وحين مددت يدي لأمي وضعت كلتا يديها على كتفاي لتحتضنني فتبعثر عزائي لتبقى بعض تمتمة منه..!

أزاحت المسند الصغير الفاصل بينها وبين جدتي وأودعتني مكانه فقد أبتدأ يضّج البيت بالوافدين وبأصوات يختلط عليك مائها من سرابها بين بكاء وتباكي !

تحاملت على نفسي مقاومة فكرة الهروب لسيارتي المركونة أول الشارع التي حذرت السائق وهدّدت بلطف أقصد به بطش إن تحرك متراً واحداً فقط قبل أن يخبرني .. وكان بطشاً لي لا له في أن أبُقي هذا الإغراء الذي أردت تنفسه بشّدة وسط هذا الإختناق .. هذه الأصوات تكومت في حلقي ولم يعد للهواء إليّ سبيل، هل من عزل يلقى على سمعنا في هكذا منعطفات تتورط بها ولا يحق لك التملص ولو واردة حرضتّك على ذلك فسيحط بعقلك كم الألسنة التي ستدقها بك مطرقة الوشايات وفحيح يبدأ ولا ينتهي، لذلك ولأن أمي تبالي أكدّت على بقائي لوقت العشاء كخيار هيّن و مستطاع مقابل المبيت معهم وسط هذا الزحام !!

بالطبع قبلت وتنقلت بين المجموعات النسائية الملقاة في محاولة بحث عن أخفّهن وطأة وهالني كيف يمكن للنساء أن يكن زئبقيات بهذا القدر المذهل، كيف تبكي وتولول في حضن جدتي هناك في مجلس الأقربين للميّت وهنا على بعد بضعة أمتار في غرفة جانبية تجدد مساحيقها وتلّج في اسئلة عن السجاد وشكل فنجان الشاي وآخر ما توغلت به واقعة شهدتها في السوق عن لعوبات نلن من متعتها هي وزوجها وأفسدن ليلتها وحين شعرت أني سأنفجر في وجهها المتورم لأبعثره على هذا السجاد الذي تغزلت به منذ قليل حملت نفسي مبتعدة وبحثت عن زاوية نفي تحتويني ما تبقى من الوقت لأسقط في فخ آخر ولكن هذه المرة كنت في خندق أضيق من سابقه، حاولت التأقلم ليس رغبة به وإنما يأسا من وجود أفضل في رحلة البحث التي خضتها هذا المساء بين زوايا هذا المنزل المحتضر

حوصرت بعدما أطمئنن إلى إستقراري بكمين أسئلة يتلقفنني فيه فيما بينهن عن وضعي وزواجي !

يا آلهي أين المفّر؟ فلنتحدث عن محاسن جدي رحِمهُ الله فلنخترع أو نتجمل من أجله إن لم يكن ذا محاسن قد يسمعها مَلك ويرصدها له ..

فلنفعل أي شيء يشبه الموت .. ندعو نبتهل أي شيء وكل شيء.. إلا عهر هذه الأسئلة

سيء شعور أن توضع تحت مجهر وتَسأل فيما لست أنت به عليم فكيف تُفتي وأنت جاهل وكيف تخبر عن جهلك بالأصل فستلقى بإحدى الهاويتان إما أن تكون كاذبا آفاقاً أو مجنونا سيضطرون إلى القبض على يده وفلق رأسه بألف لعنة ونصيحة ومشورة وإقتراح وكلا الهاويتان جحيم ستقفز منه إلى غصن هش وتلقي عليهم ثماراً لا تصل إلى أفواههم ولا ترسم بها حتفك ايضاً فتتمتم ببضع جُملٍ بالية ولكن لها فاعلية فرار جيدة نوعا ما .. إن ألحقتها بعقد حاجبيك وتناولت فنجانك بشراهة وكأنك تلقي إليه سرّا وتستنجد به أن لا ينتهي أبداً حتى ينشغلوا بغيرك لتنجو أنت إثر ذلك !

حالما نوديَ بالعشاء ركض الفرج ليحتضنني توّاقا لإنتشالي من هذه الكربة فتسللت مسرعة لبيتنا.

إستيقظت على رائحة الحياة تدّب في المنزل نفخت القهوة بجسدي الرغبة ليهب ساقطاً في غوايتها لقد تغلغلت في أوردتي حتى قبل أن استقيها ..

اللغة التي لا نقوى على تعلّمها ولا نجيد تفسيرها هي لغة القهوة ، نستطيع فقط الشعور بها الإحساس بما تفعله بنا هذه اللغة التي يدور رحاها داخلنا نفهمه ونحفظه عن ظهر قلب ونعشقه ونفشل في كيف ننصفها في أن نبلغ كمال حقها لو ترجمت اللغة لغتها !

ربما لأن رائحة الموت موّهت كل طعمٍ البارحة و عبقت في كل خيط حاولت نظمه بعيداً عنه أتت كحليف يعلن مؤازرته ودعمه لامرأة غصنها هشّ يتعاقب الليل والنهار على ثنيها فقد أغراهم هذ اليباس أزلي الكسور ولا جبر يحدّ من هذا البؤس أستأنس العالم صوت هذه الطقطقة فبات يؤمن أنها تضريسا سحيقا في طبيعته لا ضرر ولا ضرار منه بل هو منجم صيت وألق لو صرخت وأرتد صوتك إليك فليس مهم فالأهم أن تحمل حفنة من هذه الأرض لتنال شرفا ونبلا لا يلقي علينا في قاعنا السحيق جبراً يتدلى إلينا لنشفى .. لا يهم

عالقة في حصار أيام لا تمطر ولا تنبت إلا الموت هذا الفناء الذي أخذت عزائه البارحة كان عزاءاً علمت بوجوب نصبه منذ حييت، بلا جدوى تمضي هذه الأيام لا تتودد لي لتصلح ذات البين بيني و الحياة وفوق ذلك نحاول مرة بعد مرة .. يوما بعد يوم .. ساعة بعد ساعة .. نجدد عهد التصالح كل ثانية ، نجدول قوائم الفرح ونرجو أن يلبي الدعوة .. نستحلب الغيم مطرة ونستجلب الأوكسجين تكلفاً لنتنفس ونرتب على رفوف ليت ولعل أمنية أن نقع بدهشة أو سعادة بلا موعد لا تعلق على أراجيح هل وربما وعسى .. ولا تأتي إلا بعد شفاعات القرابين و ويلات الظنون !

كيف بعد ذلك لا نصاب بالغثيان .. نحن لا نترنح ولا نحتضر ، نحن تحت الأنقاض

فقد تأخر العزاء بنا و هل يؤخذ علناً .. ؟

لحقت بخليل لا يتعالى عليك عمراً .. فمن كانت القهوة خليله فلا يُشرك بها أبداً

وأنا أُصلّي داخلي الا يُسراً يمطر بأرضي ؟

أو علامة تلوح لي وتُعبّد هذا الشقاء فأعبره .

اتفقت مع سماحة أن ترافقني في اليوم الثاني من عزاء جدي ولأنه بمنتصف أسبوع لم تجد تعقيداً حينما نفضت عملها هذا اليوم .. أتت بعد العصر مباشرة أردنا أن نذهب باكراً لأستطيع الهرب باكراً أيضا فوجود سماحة معي ذريعة أتنصل بها أمامهم .. كنت أجهز نفسي حين صعدت الخادمة تخبرني بوصولها، ضفّرت شعري بضفيرة جانبية أسندتها على كتفي الأيمن لترتخي على قميص أسود و تنورة سوداء مدت في طولها وتجاوزت كعب قدمي أبقيت على ساعة يدي فقط وكمكمة أطراف القميص لأعقده على خصري كترضية للأنثى داخلي التي حاولت تمويهها قليلاً رغم أني كنت بهيئة بسيطة البارحة ولم أنجو من العيون التي تتوافد حشودها كلما خطوت خطوة بينهن .. فذلك الرمادي القصير والوشم الذي غفلت عنه أعلنا حضوراً لم أنشده فأردت أن أختبئ اليوم بهذا السواد لعل الحظ يحالفني فوحي هيئتي لهن سيهدئ من حشود الأسئلة والفضول ليفترضن الحزن والهم ما بين زوجة فاشلة وحفيدة مكلومة وبهذا أحرر نفسي ولو كان الثمن صيتاً لا يشبهني ..

خرجت مسرعة لأتعثر بوالدي في الصالة العلوية أمام التلفزيون منشغل بهاتفه ..

ألقيت التحية سريعاً فاستوقفني : " صديقتك تحت .. هذه المعيدة الأجنبية ؟ "

أنا بلا أنتباه : " لا .. هذه سماحة اللبنانية ..تأخرت عليها " وكنت في آخر السلم حينها

حينما وصلنا وجدت أمي وهند يجلسان إلى طاولة جانبية في المطبخ الداخلي لم يكن مضى على صلاة العصر إلا نصف ساعة انضممت وسماحة إليهما بعد التعازي المغرية للحياة التي تمتمت بها سماحة لأمي، في اللحظة ذاتها وصلت صينية القهوة فطلبت مني أمي حملها واللحاق بها لغرفة جدتي ليمكنهما التفرد بلحظة مع فنجان قهوة ساخن قبل وصول المعزين أتت معي سماحة وطبطبت على جدتي بألفة عتيقة حد أني تساءلت لما تحوز على قلوب العجائز بهذه السرعة المذهلة ما السر الذي يتلمسن بها ..

هل يشعرن بما تداريه وتستره بهذه القوة هل يعلمن بزيف هذا الجبروت ؟ !

منذ زمن لم أرى جدائل جدتي التي غزاها البياض فهل رقدت الحنا الحمراء إلى جانب جدي في المستشفى ومات أمر الإهتمام بطرد هذا البياض الذي زادها جمالا وشفافيه سرقا مني التحفظ الذي لطالما كان صيغة تعاملنا معها فقفزت جانبها أتحسسهما وأتغزل بهما فزادت عليّ سماحة وفاضت بالتغزل حتى رزقنا بتلك الضحكة التي ترملت فماتت تباعا مع أرملها ..!

كانت أمي تشبهها جداً جميلة وهادئة بلا حروب باردة بل أنها لطيفة و ودودة مع من ؟

مع سماحة التي لطالما تجاهلتها عنوة لم تكن حادة معها أبداً ولكن بخست وزنها في مكاييل النساء فلو نفتها فذلك يرد في عرفهن بمنح قيمة و نفخ بالون لعدم !

وكان ذلك رسائل تسلمتها الأخرى فاستثقلت الحضور إلا تكلفاً وخاصة بعد رحيل أمي لولوة فتفضل لقائنا بعيداً عن البيت أما الآن فأمي خفيفة لا أشعر بضغائن وألغاز ألححت دوما بالسؤال عنها فتجيبني بالصمت الذي لا يقودك لشيء حتى يتكرر عليك فتعتاد ويموت السؤال فيك

فجأة رجّ المنزل بأصوات جفلت به ونفضت من جيوبه كل ما فيها من بشرٍ على حالاتهم التي تزامنت مع هذا الحدث ففيهم الأشعث والنصف مستيقظ والبارد جداً كالتي جانبي ترقب ما يحدث بينما تكمل طي شعرها بدبابيس زمّت عليهم بفمها !

وحتى الأطفال سبقونا وتبعوا الصوت القادم من المطبخ بدا لنا أنه عراك خادمات للوهلة الأولى ولكن هذه الشتائم بلسان عربي ما بين آخذ ورّاد و رّاد وآخذ ومتدخلين بينهما لم نتبين منهم إلا أثرهم في النفخ على الأثنين فيشتعلا أكثر.

كنت في الخلف وجدتي من خلف كتفي تسأل عن الخبر وتردد : " يارب سترك أستر من خلقك .. يارب سترك"

في لحظة تكشّف لنا طرفيّ المعركة الأساسيين فكانت هند أحدهما !!

في ذات اللحظة كانت أمي هناك بين المتحاربتين تحاول التلطيف وإخراس هذا الصراخ وبلا وعي منها كانت تمارس هذا وهي تقف بمحاذاة هند فبدت كلماتها موجهة للطرف الآخر وهذا أثار خالتي ابنة السورية زوجة جدي لتتدخل سريعا وتدعم الصف الآخر وبدأ القصف العشوائي الذي يستدرك لحظة سوئه وبشاعته ويتوه لحظات فلا يستعمر حينها إلا جيوشا عتيدة وعتيه بهتنا ونحن نرى كمّها وسرعة استفاقتها وكأنها تنتظر منذ زمن أن تدق طبول الحرب لتلبي !

أكتظ باب المطبخ وأغلقته هذه الحشود مسافة بعده وقبله ولا أعلم أين كنت بالبدء وأين وصلت الآن بفعل التدافع والجمهرة التي تَمت بدقائق .. كانت الشتائم مبطنة ولكن سوقية تفوح منها رائحة نتنة ومخزية وصلت لمجلس الرجال نتانتها وطرق أسماعهم هذا التشابك الصوتي فقدموا جزعين خجلين لمعاينته !

حينما نزل صوت خالي البكر كسيف أجتز كل هذه الفوضى ليغلق صنبوراً أنفتح لآخره على عكرٍ، صنع لنفسه طريقاً ليصل إلى قلب هذه المعركة وكان يتبعه إثنان تجاوزني خالي وابنه قبل أن يميل قلبي بعنقي لتقع عيناي على فهد لم أنتبه للأول وهو يمر بجانبي وحينما إلتقت عيناي بالآخر يكون فهد !

مرّ .. وتوقف في قلب العراك ليقف جانب أمي وعيناه تسمّرتا بي لم يمّرا وحسب كجسده !

لما الآن ترتدي الغترة البيضاء التي أحب وتعاند كل مرة أتحايل بها لأقنعك أن ترتديها وتتحجج بضريبة العناية بها بينما أعلم أنك لا تريد لئلا تكن واضحاً في مدينة لم تعتد إلا على الشماغ كعادة حتمية وسارية وكنت أقول فلنقحم عادة جديدة يعتادونها بك، كن سباقاً كإعلان فاتن لها فالرجال يبركون على غيرة فاحشة وإن نعتونا بها وألصقوا هذه التهمة بالنساء فهم أشد وأسوأ مكراً حين تلهو بهم وتحركهم كما الهوى حتى تهوي بهم بعيداً عن العقل الذي يلمزوننا بنقصه !

هل تستقبل الموت بهذا البياض، هل كنت تعلم أن هذه المعركة ستدب ؟

أم أنت من حاكها وزرع الفتنة ليهطل علينا من السماء بالسلام ؟!

سكتت الأشياء والبشر رغم أن الأفواه لم تغلق بعد، كل طرف يحاول أن يورط الآخر والأيدي تهم تلقى في فضاء ضاق به خالي فضرب بصوتٍ من حديد ففضّ العراك ونهر البنات الكاشفات عن وجوههن في حضور الرجال بكل صفاقة فتطايرن من كل حدب وصوب بثانية رغم أنهن كن يقفن بكل برود لزمن يتملين بهم

تذكرت الآن أنهن ضمن الكاشفات.. لم ألحظ ولم يكن متاحا لي أن ألأحظ بالأصل وجود أبن خالي الذي لم تكن عيناي حرة من قيدك يا فهد ليتسنى لها فرصة رؤيته والتنبه لوجوب مغادرتي !

لم الدهشة تحل أينما تحلل ؟

لم ما زلت مأخوذة بك ؟

هل كنت مثلي ؟ أم أن عيناك تلمّست مواضع غيري .. بنات لطالما حلمن بك وبلغن إليك كل مسلك ولم يجدن إليك سبيلاً .. لم تخبرني ذلك ولكن علمته فهذه الأخبار لا تحتمل أن تدس بمخبأة الكتمان فمن تكتم سرها تلك اللحظة التي تراودك عن نفسها تشي بها في اللحظة التالية التي تراها منهزمة .. سألتك عن صحة ذلك وملت بوجهك عني .. عشقت الرجل فيك .. عشقت الستر الذي كرهت أن تنتهكه رغم أنه قد يثبت لي كم أنت مرغوب ومشتهى من كثيرات .. عشقت أنك لا تتباهى بهزائم النساء بك .. لا تجازف بإسم امرأة غدت الى بابك و صددتها وإن لم تحترمها فلن تتناول السقطات لتروج لنفسك .. لم تكن تحتاج إلى براهين .. أحببتك أكثر لحظة أن فاق احترامك احترامي لنفسي لحظتها !

فكيف بي أنبش خلف وشاية أثبت بها لقلبي أني فزت بك بلا حرب .. بلا مشقة ..

بل أنت من أضناه التعب والشوق ليشق إلي طريقاً .

كنت آيله للسقوط ربٌ أرضٍ صامدة حتى الآن تحتي أردت الهروب احتجت أن أتوارى وأخبئ هذا الأسود الذي كتب الله لي أن أكنه اليوم ليكتمل قدري ويعقد لي ضفيرة ايضا ليكتمل حمقي وأكن أضحوكة له فها أنا حمقاء أرتدي الأسود معتمة تقف بين الجمهور لاحول لها ولا قوة .. هنيئا لك بهذا الفوز يا فهد في كل مرة تصاغ الظروف لصالحك .. تلك الدعوة من أمي لولوة صبّت في وعائك ولم ينلني منها ولو بضع بعض .. استدرت لأقطع المسافة ببطء له سحر بدى به كالبرق لأجد نفسي أمام سماحة وجدتي في غرفة الأخيرة .. تقبض سماحة على يدها تهوّن عليها الأمر ..

سماحة :" مصارين البطن تتعارك لشو هالزعل بكرا يتصالحوا، صغار وبيفشّوا الحزن ببعضن"

جدتي : " ليتها على الصغار ..ما شفتي الكبار زاغت عقولهن"

"خلاص راح .. وطلع المستور .. الله يرحمه الله يرحمه، يارب سترك أستر من خلقك.. يارب ستـ .. "

أردت كأس ماء .. صببت نصفه في جوفي لأبتلع هذا الموقف .. لأعبر به بعيداً عن حلقي ، كانت هند وأمي معنا بعد لحظات من وصولي هنا . أمي غاضبة بلا تبرير أو شرح لنا .. لجدتي ما الذي جرّها لهذا العراك كانت ستطفئه ما الذي خلق منها طرفاً يدعمه ويخوضه ؟ الصمت أطبق على شفتيها لم ولن تتفوه بشيء طالما اتجهت الى طاولة الزينة لتراجع هيئتها بينما هند مازالت حانقة ومنتقصة للجميع عدى نفسها ..!

قلت لأغيظها لعلّي أنجح بطرد عيناه من رأسي " هند لقد تكشّفتِ على الرجال ؟ "

هند: " أستغفر الله .. ما الذي أدخلهم بلا مراعاة للحرمة من ألأصل ؟ "

أنا " لقد تطاولتِ على الحرمة قبل أن يفعلوا هم ؟ ألم تشعري بذلك ؟ لقد كانت شتائمك مبطنة وأن زينتيها بالنصح فلم تجودي بالفرصة لتعتلي منبرها وتعلني للجميع أنك أفضل وأن الدين لكِ وحدك "

صمتها استفزني لأكمل" الشيخة هند هناك صابونة على الرف لن يكفيك أن غسلت لسانكِ سبعون مرة بها، لكن حاولي فلكِ أجر المحاولة "

وكانت سماحة تنهك عينها بالغمز لي لأهدأ وأكف عن ذلك رغم أن نبرة حديثي غمست بلؤم أكثر من هادئ!

ألتزمت هند صمتها .. كعادة المنبريين حين تطاولنا عليهم ويحتسب صمتهم صبراً على الأذى !

قبّلت جدتي .. وانصرفنا بلا مجاملة أكثر فقد أنهار اليوم هناك ولن يمكنهم معالجته والتحزبات ستتوالد وسيعج

الهواء بالسمّ .. فلن أبقى دقيقة واحدة لا ينقصني حضور سقوط قلعة لم تعنيني يوماً .

أردنا أن نذهب كما كان الأتفاق لمكان نصرف هذا النهار فيه ونسرف بالوقت حتى يعلن الليل إفلاس المتاح لنا ونكن على حافة مسائلات الغياب والتأخير، لنعود متخمين أو نفتعل أننا كذلك نتناسى حقيقة أننا ملزمين بساعة الحائط لا بحقيقة هل نرغب حقا بالعودة أم مازال في النفس بقية .. ويبقى رجاء ذلك اليوم فقط .

اليوم الذي ليس لنفسٌ على نفسٍ شيئاً ويكن الأمر يومئذٍ لله ..

حينها سنقف خصوماً لن يخذلنا الله وسيشفع الصبر جاثياً لنا عما رآه فهاله ما رأى ..!

رأتني سماحة مغمورة به .. أحدق بكأس القهوة الإيطالية التي أعشقها وخاب أملها مني منذ ساعة فهي راودت شهيتي بأبخرتها المتمايلة أمامي وراوغت برائحتها أنفي ووقعت منه

ولكن لا أمر له في حالة قلبي المأخوذ بعيناه ، بتلك الذقن القذرة النامية منذ بدء كانت دية غضبي منه أن لا يجزها ويمّلس أرضها لذلك كان يشذّبها فقط لأتمسح بها آناء الليل والنهار يكن حرثها قبلات لا تنتهي فكيف به يقامر بكل هذه اللهفة ؟ باطن كفيّ ميزان مزاجه يعتدل به حين أحتضن وجهه بهما .. فهل بعد هذا لا يبقيها ؟

تسقط ورقة التوت من على فمه ليرفع الكلام بما جثا على صدره يلقيه عاريا ..

ليتحدث هذا الرزين لساعات وكل مرة نقرر إنهاء المحادثة يجّد جديد يختلقه ليبقى ..

في مرة قال بعد محاولات فاشلة في أن يذهب للنوم فالفجر على الباب وموعد عمله متكئا على ظهر الفجر :

" لو كانت روحا ستخرج لن تكون بتعقيد قرار قطع هذا الاتصال "

في أحدها فوّت الإفطار مع أمي لولوة لتخرج روحها بينما أنا تحت طن من الأغطية أهاتفك ..

رحلت هيَ .. لترحل أنت ايضاً بعد ذلك

يالطراوة اللحظة .. طرية كجرح أخذ منه الوقت رحمة الخدر !!

كنت أستفيق من هذا الخدر والألم تلبّس ملامحي وإن جاهدت أن أرخيها فأطلقت سماحة في رأس هذه الأمسية رصاصة الرحمة ومنحتني حرية الاختباء .. لأيمم هذا القليل مني والكثير منك شطر البيت.

لم يكن طريقي نحو غرفتي يحتمل أي محطات توقف وصلت هناك قبل أن تلتقطني أرض غريبة لا تستر دوي ضعفي ولا تبتلع هطولي .. أرض ينتفخ بطنها بجنين دمع عابر لأقع في مأزق شرح الجناية وتعليلها، تأكدت من جعل الباب تُرسا أحكم به الغادي والرائح الى رأسي بقية هذا اليوم فقد استكفى وفاض من عشوائيات القدر و لؤم الصدف وضراوتها، تناولت قميصا خفيفا جداً ليس بذا حضور يزعج جسدي ويثقل عليه . خطوت نحو السرير أقاوم الجاذبية لأجلس على الحافة أبدل هذا السواد راية هزيمتي .. في نصف الطريق لعتق الأزرار من العرى بهذا القميص الخانق على صدري تخلصت منه ومن القطعة الصغيرة تحتهِ المحشوة بسلك حديد رفيع من شأنه الغرز في صدري الموءود به ،في مكان ما على هذه الأرض يوقع لك الطبيب على روشتة دواء لا تُصرف من رفوف الصيدليات، بل من رفوف متخمة داخلك تخرج لها لسانك و تخلع كل خيط محاك من على جسدك .. وتدعه عاريا ..كما أتى .. حُراً كما ينبغي .. متصالحا مع تضاريسه كما مُنحت ، روشتة لا تكلفك هللة واحدة بينما تنقدك هوية ماهت بين خيط وخيط من كل قماش ووحل !

أوه .. التنورة مازالت تحاصر وسطي .. رميت ظهري على السرير وسلختها مني برفعه قليلا وجرها للأسفل حتى إنطوت بأكملها حول قدمي لأقذفها قدر ما أمكنني بعيداً لأشعر بعدها بالهواء ، بالإنتصار لخروجي من هذا الموقف الذي دُلق على رأسي بوقاحة وجُرأة .. هكذا تنزلق بك حيث سكب آخرون قذاراتهم يعلمون ما يُقدمون عليه بينما تتفاجأ أنت أنك في المنتصف في شئ لم تسعى إليه وفوق هذا لا يسعك الركض بعيداً ..

في منتصف شيء يهز عرش خططك ..

يُبكر في ما لا تنوي مواجهته الآن .. لا تقوى !

أمارس خدعة قديمة على نفسي .. أغمض عيناي بنوايا اللا مبالاة لشيء عصف بي وفي أوقات كثيرة كانت فعّالة وتؤتي بما يراد منها ..

أما الآن فأنا أمارسها بينما أتشبث بما داخل رأسي كيلا يهرب .. كيلا يموه ويتسرب من ثقب ذاكرتي القصيرة أحاول طباعته لأمد أطول .. لوقتٍ يكن مخزوني به إليه حاجة ..حاجة يصلاها جحيم الحنين والشوق والرغبة فيما غدى وطارت به الريح .

قلبي حقن بك وافرطت عيناك في وصالٍ مزّق الموت الذي أدعاه زمنا كدت أؤمن أنك بت لا تعني لي هذا الذي بلقائه يجفل الدم من أوردتي وتفرز بجسدي الألوان التي نضبت وبين قلبٍ يحيا بك وجمرٍ أشتعل من جديد بقدر تلك الضراوة والحرقة حينما دسسته جمرة جمرة في نصف قلبي .. ها هو عاد مضرماً مشتعلاً و ما بين الحياة والنار تسحقني يا فهد .. تحيلني إلى سيدة تحتقر نفسها لو باحت بأن حبك باقٍ رغم خيانتك لها ..!

أي نوع من النساء سأكون بعيونهم ؟ بل بعيوني أنا ..؟

سأكره أن أكون لمفردي ما حييت ..

سأكره أن أبقى مع سيدة تقبل أن تُهان .. لوحدنا حتى ولو كانت هذه السيدة أنا .. !

سأهرول دائما باحثة عن صحبة .. عن ضجيج .. عن أصوات تُغرق الصوت الذي بداخلي ..

الصوت الذي يبصق في وجهي كلما بقيت معه على إنفراد .

حتى يكشط الصراخ رتبتي ويدنيها درجات من سيدة.. لبلهاء يئس من توعدها وصب النُذر في أذنيها ومن رأى ليس كمن سمع ! ليلملم إهتمامه بي ، فلم يعد يكترث.. ويرحل

ليستقبلني صمت الحريم بحضن واسع يحتفي بي ويزجني خلف قضبان السؤال وزنزانة الحرمة لكل المباح والمعقول فواحد زائد واحد ليس بالضرورة أن تساوي اثنين ..ربما ويجوز أن تساوي أكثر أقل حسبما تهوى صدورهم ستساوي .. ومطية ذلك أنني مقضومة العقل والدين فمن يهتم لإقناع غير ذا أهلية، هل ينظر لي إلا ركوبة ليل إن سألت جارت على نفسها .

سأكون واحدة من .. سأكون حرمة تلصق على باب ثلاجتها مهام البيت مخطوطة بترتيب وعناية على قطعة ورق صفراء صغيرة أما مهام الزوج فحروفها مغنجة بين مهمة وأخرى بقلب حب يشق منتصفه سهمٌ رسمته ببلاهة ولهفة كي تقع عينا هذا الزوج عليه لربما طرحني لدقيقة غير كاملة على سرير مزركش بنور يومض كجائزة أهذي بها شهراً للأمام، وتباً لي أن كان هناك ورقة مخبأة على درج مكتبي النائم تحت الغبار منذ دلفت بقدمي اليمنى لهذه الزنزانة .. يوم وضع السجّان يده على رأسي يسأل بركتي ويتعوذ من شرّي .. وويل لي لو فكرت ولو فكرة مشاغبة أن أضع يدي على رأسه وأدعو الله بالمثل .. هل هو خير مُطلق .. أم لأني حرمة فلا بأس بالشر ففيه خيرة لا نعلمها نحن معشر الحريم .. !

ورقة حمراء .. أو خضراء أدون بها ما أحبه وأهواه .. ما أفكر به وأريده .. ربما أنوي تجربته قبلاً لأقرر أريده أو لا .. أجربه أنا .. لا يوحى إلي بحرمته سلفاً من زوجي .. عالِم مصلحتي والمفتي بها، المتعوّذ من شرّي أول ليلة بيننا قُبيل فضّ جسدي المُلغم ربما بالشر .. وحبذا المحقون بالصمت .. بالصمم

هل أقفز لآخر .. لا أعرفه ونبدأ لقائنا ببسط يده على هامة رأسي .. أم أكون معك يا فهد بكل عيوب الصناعة فيك بل بكل مالا أعتقد فيك .. فأنت لم تنم مع تلك المولعة بك ، تلك المملؤة بقيح الحريم اللاتي يغضبن كحيوان غاب لا يملك إلا فطرته لنوال شهيته .. قبض غايته .. اقتناص انتقامه ..هل ينتقم الحيوان كما الحريم ؟!

تجاهلت ايحاءاتها وقتاً .. أغمضت عينك عن يدها البضة التي تراود يدك عن لمسة .. عن كهرباء تريد صعقك بها إن لم يمل قلبك إليها فكل الطرق مشروعة في حرب الحريم .. كلها

ستلتهمك مصعوقاً .. وتبتز كبريائك بعد الصحو وتريك أنكم في غيّكم سواء ، فالذي لا يجوع ولا يسيل لعابه لطبق مجاني إما يرفس النعم وذلك أحمق لا يوقظ إنتباهتها .. وإما أنت عيناك متخمة بطبق آخر بصِرته هي فقررت فقأ عينيك وتغريمك أجر فعلتك

فهد .. هل هذه الحقيقة التي تُقسم عليها و أصدقك لأن حديثك قَسمٌ بلا قَسم !!

لم تنم معها .. ولكن كدت أن تفعل .. كدت

ولو كدت أنا بما كدت أنت أن تهمم به .. هل يغفر قلبك لي الفكرة .. ولو كانت خطفاً

هل أغرمك مهراً جديداً وطنّ من الذهب أكسر به ظهرك و أمط به رقبتي بمجلس الحريم ؟

هل أغرمك .. وأنجو منهم .. ونعود

هل ستتمرد الفكرة اللئيمة وتتمادى بعد ذلك لتلج في كمٌّ لا ينتهي من طابور الأطباق المجانية ولوجاً يقفز من رأسك ليتولاه جسدك ؟

أحبك !

هذه الخدعة في إطباق جفنيّ لا تجدي نفعا .. فقد أتت بخصومة جديدة .. ربما قديمة مركونة حان وقت فصالها والنظر بمدعييها .. إثنتان .. سيدة و حُرمه

نهضت نحو مرآتي وفي طريقي إلتقطت قطع الملابس النثر على أرضية الغرفة لأجنّبها ..

حين التقيت عيناي على المرآه آمنت بما يخفي القاضي بين جنبيه وإن لم يرفع مطرقته بَعد!

نقضت ضفيرتي الطويلة لعلّي أنقض صورته المنقوشة على حيطان رأسي، لعلّ التفاصيل المغمّسة به تتساقط وتتبعثر على سجادتي الغزيرة التي لطالما التهمت قطع الزينة ودبابيس الشعر فحينما أفتقدهم لا يعودوا يوماً، لعلّ هذه التفاصيل تلحق بهم ايضاً، لتمرر الخادمة بلا مبالاة عصا المكنسة الكهربائية فيبتلعها .. يردم فمها الثرثار بالغبار لتحررني من العطش إليها.

هل سأنسى .. هل سأبسط يدي من عليها .. عليك ؟!

هل سأتخلى عنك ؟

هل سأقطف حبك الذي لا يذهب إلى ذبول !

ركض قلبي إليك مع أنني متشنجة لا تحملني قدماي ثقيلة كحقيبة قديمة باليه بعجلات تضّر بالأرض ولا تتحرك تدور حول نفسها تمارس رقصة ساذجة متورطة

كلما رضّت بعزم لتهرب غرزت بعمق أكثر بسذاجة أكبر.. ورطة!

تقص علي سماحة ما حصل حينها وكيف تصدّرنا المشهد هناك وكيف ببراعة سرقنا الضوء ووضعناهم في مأزق ما بين متابعة العراك أو التطفل على العروس ذات الرداء الأسود والعالقة على حافة طلاق .. وربما مطلقة ..بل الأكيد أنها كذلك ولأنك الرجل حمّال عيبك .. فالرثاء لي وحدي حظيت به ولكن هو رثاء لا يشبه الرثاء بشيء وفوق ذلك ،حتى أخواتك هناك .. قلت لي مرة أنهم رفضوا إختيارك لي بحجة أني متعجرفة متنصلة من جلدي .. لا أعرف ما يعنيّن تماما .. وربما يؤمن بأني حية ملساء وتنصلت لأكون جافة لا ينعطف فمي ولا يلتوي لساني ليل نهار في كذب لا ينتهي .. أوه آسفه .. في مجاملات لا تنتهي .. أليست تسمى مجاملات ؟ هل النساء ذات اللون ؟ لم أعلم أني من نافذتهن أبدو جاحدة لجلدي .. كنت أعتقد أني ذات لسان لا يفترق في منتصفه ليصبح ذا رأسين .. صوتي العالي بل الواضح لا يشبه الفحيح .. انتقائيتي في إختيار صحبتي والأقربين لي و مني ..نضج وحكمة عجائز بيضاء فتلك نصائح أمي لولوه ..

بعد هذا بنات خالتي يروجن أني متنصلة من جلدي ؟ ولا يردن أن تقترب مني ؟!

_ ولما اقتربت بعد هذا ؟

_لأنك متنصلة !

_تُحب المتنصلات ؟

_أحب لسانك ذا الرأس الواحد

_تحب لساني ؟!

_أحب صوتك العالي .. أقصد الجميل

_أنا متنصلة .. تذّكر ذلك ؟

_أريد ذلك

_و أخواتك ؟

_ما بهم ؟

_لا يحبوني

_لو أحبوك .. لن أحبك بالتالي !

_لما ؟

_ حينها لن تكوني صبا

_ستغير رأيك يوماً ؟

_منذ حبيت .. حينما كنت زوجة غيري في لعبة "الدور" ذلك اليوم أقسمت أن تكوني زوجتي

_لن تغير رأيك إذن ؟

_لم أغيره كل ذلك العمر !

_ماذا تحب فيّ؟

_جميعك .. وكل قليلك

_كيف ؟

_كل قصة بعد كل اجتماع نسائي .. أتنصّت بخشوع أترقب أسمك .. أنتظر حدثا يحتويك

_أكمل

_وحين لا تأتين .. أشعر بالخسارة ..أغضب قليلا وأترقب الموعد القادم فأهدأ وأعيش بين المواعيد .. كل مرة، وحتى حينما يحضر أسمك يحضر متبوعا بكومة ضغائن وعلمت أنك لن تعجبي الجماهير أبداً وهذا يحفز معجبك الوحيد في بيتنا لأن يتشبث أكثر .. لن أتغير ولن يتغيرون ..هل ستتغيرين أنتِ ؟

_تريدني أن أتغير ؟

_إن تغيرتِ .. قد أتغير

_كيف؟

_أحبكِ كما أنتِ

_لن أتغير من أجل نفسي لا من أجلك

_علمتي لما أحبك الآن؟ .. من أجل هذا أقبّل ثرى قدميكِ !!

_وأنا أحبك .. تعلم؟

_أخيراً ..بعد هذا العمر ؟ .. لم أكن خلقت بعينك أبدا لزمن حسبته دهراً وكدت أحنث بقسمي وأجتثك منّي

_هل تستطيع ؟

_لو كنت أستطيع .. ما تعلقت بقشّة حين فرضت نفسي رغم أنف العادة والكرامة لسنوات وجوابك الصمت حتى بت أسائل هواتف الأهل متلصصا لأطرد شكوكا تلّح في أني أراسل شبحاً !!

_لم أعرفك .. ولم أؤمن بأن مدينتنا تنجب رجلا بقلب !

_حمقاء .. هل يوجد رجل بلا قلب ؟

_هل يوجد رجل بقلب ؟ و .. بالقصيم ؟

_مجنونة .. ومتعجرفة .. صدقوا حين قالوا ذلك

_أرأيت .. أنت متشبع بآراء عني وسيؤثرون بك

_لا .. حين أقول ذلك .. ترجميها بقلبك لا تهتمي بالنقل

_النقل حياة

_العقل والقلب هما الحياة

_أكره أن أُحب !

_تكرهيني؟

_لا .. أحبك وأكره ذلك

_لما ؟

_لا أُحب القيد

_لست قيد .. جناحيك لم يُمسّا

_أخاف الخوف !

_لا تخافي إذن

_لن نندم؟

_سنندم إن لم نعش هذا

_لا تجعلني أندم

_لو لم تكن أنتِ .. لن يكون غيرك

_لما

_لا أميل إلى مالا يُشبهك .. لم أفعل يوماً

_أبداً ؟

_أنا بكر القلب .. والجسد

_رجل في الثلاثين بكر .؟

_وهل كُتب على الرجال جميعهم الفسق ؟

_كنت أعتقد ذلك .. بل أجزم

_لماذا ؟

_لأن بكر لنا .. معيارنا نحن النساء .. نُكال به !

_ونحن ايضاً

_رجال أبكار ؟! .. لا أستطيع هضم الفكرة

_ربما تعتاديها .. حينما تلمسي ذلك مني

_كيف

_لا أعلم

_وأنا كيف سأعلم .. الكذب يحجب المعرفة

_قلبك .. يخبرك

_ربما

_أحبك .. ولن أندم

_أحبك .. ولا أريد أن أندم يا فهد

حين ألتقيته ذلك اليوم لأمنحه الضوء الأخضر لنقفز لخطوة البدء ويصبح أمرنا رسميا على الملأ و تكن خطوات العودة والتراجع وعرة مؤذية فكان لا بُد أن أراه ويتفحصّه قلبي ..

كان صبا جزء صغير مني .. والباقي كان راداراً يرصد اللحظة ليقبض على ما يشير إلى كذبة البكر تلك التي يخبر عنها .. ولكن لم أنل برهان يُدينه ويُحيله إلى كاذب ولم أجد ايضا ما يخبر أنه بكر مرتبك ومأخوذ بالموقف بل كان هادئا وكل حركة منه بمكيال وموعد .. حديثه يخلق بداخلك دعوة تتردد بألا يصمت يارب .. وحين يصمت تبتهلين أن لا يتبتل كثيرا بك ويتوقف قلبك مرديا من نظرة عيناه ..

يسند ظهره ويرتكز بعيناه عليكِ ليوحي آمراً أن هلمي إلى قلبي فتزهدي بالوقت .. بالأقربين .. بالعالم وتسرفي به هو فقط !!

هل ألام بالتفاصيل التي تغرسه بقلبي أكثر .. تلك التفاصيل لا تقتصر حولي .. بل حول كل شيء

حينما يتعامل مع عامل المتجر .. اعتقدت أنه بهذا اللطف معه للطف الآخر ايضاً .. ولكن حين أصبحوا أكثر من عامل .. أكثر من موقف .. علمت أنه يستحق الإحترام .. ولم أخبره بذلك ..

الا يفترض أن يكون الجميع لطيفاً معهم؟ لذلك لم أسرر له بالمفترض . وبالحقيقة خفت أن سجلت إعجابي أن يتغير المشهد الذي أحببت ويصبح متكلفا .. كالجميع .. يمنن يستكثر !

لأننا بشر يستعمرنا مزاج صعب لا نطيق مداهنته نخضع تحت سلطته حتى يأتي الجلاء بلا نضال مبذول ..

بلا محاولات لذلك .. سبحان من سوّاه و عدّل له مزاجاً فاقد السلطة والأهلية لتشكيل أيامه .. بصدر مفتوح يلتقط جني اليوم ويباشر العلاج والصياغة .. يقرأ الآخرين ويوصد كتابه .. معجزة أن يفضي برأييه فيما عالج وقرأ.. وكأنه أقسم على شرف المهنة كطبيب لم يعلم يومها أن شرف القسم لا يبني إلا حسرة في الصدور !

حنث الأطباء بالقسم وبقي فهد محسوراً في أوج جحيمنا تمنيت أن يفعل ويكن لمرة كتابٌ مفتوح لأحدهم لينجو.

ما جعل قلبي يقفز بشراهة بلا تمنّع بعد ذلك .. حينما التقى بجدتي "أمي لولوة" كان رجلاً كالذين نراهم على صفحات الكتب .. كعمالقة الشاشات الصغيرة .. الكياسة .. العبارات الأخاذة مؤتيه للكبار قدرهم وجلالتهم، حكاياته لها .. تفاعله مع حكاياتها ، في يوم لم تكن على ما يرام بمسئولية لم أرها من أبي خطى نحوها بخطوات لم أستطع مجاراتها ليتحسس بكف يده جبينها .. ويمرر أصابعه على صدغها ..

لم تكن بعيدة عنه ولا قريبة ايضا ليكن بهذه الرحمة والحُب.. !

هي أحبته .. وباركت هذا الإرتباط .. ولو كانت هنا الآن لقرأت لي ما يجب أن أفعل لحررتني من هذه الحيرة ومن هذا الخوف .. والشوق

مضني وشاق أن أقرر مالا أريد وأن أريد مالا يفترض

أنا أحبه و أتنفسه وبات قطعة مني لم يعد يصلح العيش بلا هذا القطعة لم أعد صالحة بَعد أن أحيا بلا كمال أستشعره بنفسي حين يكن جانبي !

لا يكمل نقصاً .. لا

هو الحب الذي رأيته ولم أطمع بتذوقه ولكن تذوقت الآن .. مارسنا الحياة كواحد

عناقنا كان يدفئ قلبي ويعيد ترتيبي .. يغرف بؤسي و قلقي و يدلقهما خارجا .. لأنقشع صحو بعد ذلك

لا أنتظر كأمي وخالاتي ونساء مدينتي موعد خروجك من المنزل لأحظى بوقتي ..

لأزفر ثقلك وأفتح فاه رئتاي على آخره لأحوز على كل أوكسجين لا تسابقني إليه .. !!

بل كنت أكره يوم السبت والثلاثاء .. مواعيد الرفقة والزملاء منذ عهد كما أخبرتني حتى لا أطمع بحرب أغتنمهما فيها ، لذلك سلّمت .

لم أكن أؤمن بيوم لا يمنحك لي كامل وقته

يأتي هذان اليومان بنصف عمر بيننا وكل يوم يقتص مني بك لا أميل إليه، هذا الملل واللا جدوى .. اللا ألوان ..اللا طعم جميعهم سواء تبخروا

كنت المادة التي ألقت بهم إلى حاوية العدم ..!

تنهب أعمارنا ونحن فيهم منفلقين لمجموعات فيها من ينزلق يجهل أن هناك فرصة الخلاص من دوامة اللا شيء هذه ، وهناك من يريق العمر بحثا عن الخلاص ..وهؤلاء أشقى فأن تعلم أن هناك شيء ولا تقع عليه أمرٌ يحيلك إلى كَبَدٌ لا يهدأ ما دمت في زفير وشهيق، وهناك من حالفهم الحظ ورتّب لهم مع النعيم لقاء فعثروا على أنصافهم العائمة في بحر هذه الحياة .. لقاء طال أم قصر فقد تم !

هذا النصف أنت ..

هل أشطر نصفي بعد ذلك ؟

سأكون بنصف حياة ونصف فرَح ونصف روح ..

نصف ضحك ونصف حديث ونصف امرأة .. رغم أن نصف الأشياء ليست عاداتي!

رّن هاتفي .. لأهوي إلى حيث أنا الآن في ليلةٍ دهر مازالت تمارس عبثها فيّ .. كان الهاتف هناك على رف مرآة الحمام ، رقم غريب وفوق هذا عتبت عليه الأرقام جميعها فحواها لترضى ..لم يكن مغريا وذا أثر على فضولي.. فلم أجب ، تناولته لأرمي به في حضن سريري حتى أعود .. بعد نصف ساعة في المطبخ أعددت بها نصف كيس البطاطس المثّلجة ونثرت فوقها كيس ونصف من الجبن وهي ساخنة جداً ليمتزجا بعنف تكتمل لذته مع فيلم جريمة أو أكشن من شأنه أن يرفع معدلات الحياة في جسدي وحبذا لو كانت كميات الرصاص عشوائية لتدفعني إلى تقدير هذه اللا جدوى التي أتذمر منها .. ! صعدت إلى غرفتي بطبقي الدسم وجرة الكاتشب الذي يضخ الشهوة فيه أكثر وأكثر .. سأناضل لمقاومة هذه الليلة الفاحشة لؤماً و يشاء الله أن ينغص البيبسي المفقود وليمتي .. والوقت المتأخر يخضعنا لأن نتقبل على مضض أو رحابة أن الجود من الموجود فعلاقة مفاتيحي لا تأثم بإستقبال مفتاح سيارة بينها فتتولاها الخطيئة بداعي بيبسي " تالي" الليل .. لا طبعا ما هذه التفاهة يا ملكة ما خلقتِ لهذا .. سأرسل لسوهراب قبل أن أنسى ويتحجج هو بألف حجة غداً وتكن الملكة تحت رحمة سوهراب السائق !!

في منتصف الفيلم .. منتصف تناولي الطعام تذكرت الهاتف قفزت إليه وكأن هناك من لكزني يجدد عهد النكد معي .. كان الرقم الغريب متكرراً .. أربعة مكالمات فائتة!!

خير إن شاء الله ؟؟

أعدت الأتصال بعد أن تسرب إلي القلق ..

_ رفع الخط .. ولكن لا صوت .. قلت : الو ؟

_ "صباح الخير" صوت فهد !!!

أغلقت الخط وفي طريق الإغلاق أتاني صوته من بعيد مازال يتحدث

حرام مازال يتحدث .. يا لقسوتك يا صبا !

أصبحت الضحية التي ترافع عنك للنظر في أمرك بعين الرحمة ، المتهم والجاني ترافع عنه المجني عليها، لو علمت بهذه المرافعة داخلي الآن لنما صوتك جذلا ومات هذا الإنكسار الذي خرق أذني ..

ما عهدتك إلا أجشا جهوراً .. مما أنت خائف .. مني ؟

بعد فترة سهو به أتت رسالة نصية ..

طويلة تحتاج مني أن أخلو بها تحت لحافي

" أما آن أوان الحياة ... ألا يجدر بالموت أن يدفن قبلنا ، للننسى أمر الزواج والعقد الذي بيننا ،لننسى الحب الذي تعتقدين أني دنسته .. لننسى كل العهود والألف حلم المعقودة بأرحام الوعود بيننا ،فقط كوني صديقتي .. كوني الماء البتار لعثّ الظمأ بي .. تخمدين ناراً سعيرها سيطال مني .. لن تجديني إلا رماداً إن لم يكن الأوان قد آن بَعد برأيك ، أنا أرفع الراية أشعر بهاوية لا أحمل طاقة لمقاومة جاذبيتها .. لن تغفري لنفسك إن خذلتني .. إن كففتِ يدك عن يدي الممدودة للنجاة .. لا أريد إلا فرصة حديث .. أستحق فرصة تسمعيني لمرة ..لو تعلمين من تمنيت أن يسمعني و ينظر إلى شكواي منكِ ولا يتلفظ حرفاً بحقك لا أحتمله .. جدتك لولوة !نعم تمنيت وكل ليلة أتمنى ..

وكل صبح يتنفس بينما أنا أجاهد في الفوز بنسيم يفرج عن الإختناق بصدري في هذه اللحظات من يومي .. أتمنى لو مازالت بيننا لأشكوك إليها وأضمن أنها لن تشدد على دعواي ضدك ولن تحرضني عليكِ .. ولأنها تحبكِ درجات فوق حبي لكِ تمنيت لو أقتصصت من عمري عُمر لأهبه لها وتكن هنا بيننا .. يكن عليكِ أمر تهبّي له سمعاً وطاعة ولو بغير قناعة فقط لتستمعي إلي ولو لمرة ☹ "

لم أصل لهذه الأيقونة الحزينة إلا وكنت أغرقت وسادتي فيضان دموع هاج وكأنه ينتظر ثغرة يمتطيها لينطلق أردت أن أهاتفه .. ترددت ولم أستطع .. تدربت قليلاً وحين هممت بفعلها جبنت وتراجعت فقد تخلى صوتي عني رغم حاجتي إليه .. أردت أن أهاتفه بصوت عالي لا مبالي قوي أقبل به عرض الصداقة و أستمع إليه فقد أتى بشفاعة من لا ترد لها شفاعة عندي !

ولكن بدلا من ذلك أصمّت الهاتف وقلبت رأسي تحت الوسادة الضخمة و .. نمت ، حتى لو كنت سأتظاهر النوم فذلك تودد للنوم قد يطيل الجواب ولكن سيأتي .. لا بأس .. سأنام

كل التعب في إستعطاف النوم ذهب سدى عدت لإستئناف جهادي في معركتي مع هذه الليلة السمينة تناولت جهاز التحكم دست زر التشغيل وربت على الصوت على آخره وعدت أتمدد على السرير كل ذلك محاولات للشفاء من هوس إفتعال النوم وتقديم دعوات إليه بأقراص الإسترخاء والتنويم ..

هذه الراحة نستمطرها ولا تأتي إلا تكلفاً ومنّة .. نلقي أنفسنا نحو هوة الخدر بتذاكر ندفع ثمنها وفوق ذلك نستفيق على ذات الحال لنعيد الكَرة مرة بعد مرة حتى نُنّمطه ويكن أسلوب حياة

المدعو إستفاقة .. لحياتنا لا يغري أبداً !

مر أسبوع على تلك الليلة حبست نفسي بصندوق الساعة العكسية للآخرين حتى لا أصطدم بهم صحوت ذلك اليوم الذي تلى ليلتي تلك مختنقة بغصة لم أستطع لفظها ولم أعرف العلة لأزيحها ايضاً .. مضت الأيام مخمورة نفضت كل مؤرق كتمرين إجباري يؤنبني ضميري بشكل خاطف فأقتطع عليه الطريق بإشهار بنود الإتفاق التي عقدتها مع نفسي وعلى نفسي ..

كوني سيدة أفكارك

كوني سيدة أفكارك

في ظهيرة ذلك اليوم بينما أتنقل بين القنوات التلفزيونية فزت بلقاء مع امرأة مثقفة تشرح هذا التمرين وتشدد على أهمية أن نردده لمدة خمس دقائق طوال أسبوع كامل وسنؤثر ولا أعرف كيف ! على السيادة لأفكارنا !!

هل يعقل أن أردد بضع كلمات فأتحرر مما داخل الوعاء كله ؟!

عموما أنا بحاجة لبعض الإعتكاف .. لبعض الفسحة من هذه الفوضى المؤجِجة والمناهضة لطرحي بين جموع من البشر لا أطيقهم و لا أطيق سخافاتهم .. سأجرب هذا الجنون لعلّ به أثراً ..

فهؤلاء المجانين سعيدين بحياتهم وتشعر فعلاً وكأن هذه الشعوذات تؤتي أُوكلها معهم .. ربما هي ربح وربما هي في باب "رزق الهبل عالمجانين" طبعا ولكن ابتسامتهم واسعة معقودة أطرافها بشحمة الأذنين كل مرة نراهم بها ما هذه الحياة اللطيفة التي يروجون لها؟

Oh .. life it's Cute !!

غريب أمرهم .. تصدّروا المشهد هؤلاء الهُبل وبتنا نتهم أنفسنا أننا نحن النكدين نلاحق الهم والغم كبدو رُحّل !

الا يسمعون أننا خلقنا في كَبد وأن هذا المعمول بنا ضرورة

هل يختلقون هؤلاء الأطباء السعداء لنا كميناً .. أم يسخرون من بؤسنا و يتاجروا به؟!

مع ذلك أنا بائسة حد التصديق بهم .. وتجارتهم رابحة فالشهادة لله هي خصبة في بلدنا والزبائن على حافة الرجاء والتعلق بقشة سخيفة كهذه التمارين النفسية مادام العقل في عطلة خارج خارطتنا فلنجرب هذه الألعاب لعل ضفتّهم بيضاء معزولة من الحزن والشيطان والكَبد.

" كل يوم لمدة خمس دقائق طوال أسبوع كامل أردد : أنا سيدة أفكاري "

لحظة .. خطر في بالي سؤال أخير

الأسبوع الذي يليه سيزول مفعول سيادتي لأفكاري ؟ .. أم سنلعب كثيراً ؟

كنت أعوم على فراشي لساعات طوال هذه الأيام يقظة ونائمة وما بين الصحو والغياب لم أحاول أن أرقب الوقت تحاشيت ذلك ورفعت سيف العدّ عن روحي ولأني في طمث فقد نبت لي جناحان من السعة لأطير وأحط متى شئت لأهمل مالا يعود بشيء إن لم أهمله ايضا .. غرقت في برامج التواصل حتى القديمة منها وكانت إلهاء جبار يستهلك الوقت والانتباه كماكينة لا تشبع ولا ترتوي بل مهما صرفت فيها فلها القدرة على ضخ الكثير مما يبقيك مهتم أكثر !!

تويتر ميدان التلاسن والبوح وكل ذا ضالة سيجد ضالته ، و برامج العروض الكثيرة فالآن عصر الصورة الفاحش الذي أخرس الكلمة وأصبحت عزيز القوم الذي ذُل .. والآسك والمدونات ،كل هذه السماوات تضج بالبشر تقرأهم ولا يشترط عليها فهمهم مع ذلك .. مررت بمجلة ليلى وفريقها وجدت مقالاً لها أغلقته بتعزية خاصة أوردت أسمي بها .. أشتقت لها لا أعلم ما هذا الحقد الذي أدخرته لي الوحدة لتغزوني فجأة ومن كل جانب فتختطف مني ثلاثة إرتكازات في آن واحد .. ما هذا الإتقان والحرفية ؟!

حينما قرأت أسمي بمقال ليلى .. طمعت في أن يرد أسمي مرة أخرى بشيء يخصني ..

سيدة أعمال رغم أني أكره لغة الأرقام وأغدو بلهاء في معرفة مالي وما علّي في حساب السوبر ماركت فكيف بالتجارة ؟ ربما يليق بي أن أصبح فنانة تشكيلية .. لا أجيد الرسم وإن كنت أعشق الألوان وأفهمها وأزّوج فيما بينها دائما وأوّفق ولطالما جذبت الأنظار بما لم يخطر لهم ..ومع ذلك لا .. لا أحب الفنانين فعقدهم لا تنتهي والأجهزة الذكية ستلغي قيمتهم عن قريب .. لا أعلم رؤية أسمي ألّحت علي أن أفكر في صناعة تليق لئلا يصبح نسيا منسيا بين الآف الأسماء الآن .. هبلاوات تافهات ..أريد شيئا ذا قيمة

لا يهم أن أضع أسمي .. سأتخلى عن ذلك فمن الممكن أن أختلق إسما مستعاراً ..أريد أن أشغل شيئا يبهجني ينقلني عن حافة الوجود للوجود .. للجدوى .. لجوانب في الحياة لا علاقة للمشاعر والمشاكل الشخصية بها كالعطاء مثلا .. أؤسس جمعية خيرية ؟ !

من سيدعمني ؟ سيعتقدون أني أُرائي ؟ هل سأؤخذ بإعتقادهم أم يكفيني أن الله يعلم نواياي ؟؟!!

قد أموت ويذكرون ذلك حين زفي إلى قبري .. فيحتسب ! هل سيتذكرن أولئك الحريم أني مت ولا داعي للنميمة الآن، أم سيفعلن بحكم العادة وبعد ذلك يستغفرن الله ومن تحت لسانٍ ثقيل بالسم "خلاص ماتت الله يرحمها ويستر عليها "

اوه .. ما الذي أتى بالموت الآن

نحن في الحياة يا صبا حاولي أن تتسيّدي أفكار الحياة لا الموت .. ما بك ؟؟

"طيب"

سأفكر بشيء مجدي لن أستمع للنميمة وما سيقال ..تباً لهن

أمممم

سأرشح نفسي للمجلس البلدي .. نعم .. هذه هي .. نعم نعم وجدتها !

سأضع جدولاً نحتاج إليه حقيقة .. لا أريد الكرسي ولا المخصص ..نعم لست بحاجتهم

سيدعمني والدي .. وسنوصي كل من لنا خاطر عنده .. لن أشتري أصواتاً بالدعوات والولائم ..لا لن أفعل

دعينا من هذا الآن .. ما جدولك و ما الذي تريدين أن يكن ذا جدوى لحياتك وإسمك

"ليس مهما الإسم ..تذكري ذلك ..أنتِ تبحثين عن الجدوى والخروج من عنق آدم ..عفواً عنق الزجاجة "

صحيح .. فلنركز إذن على الجدوى

بما أني أحب الروايات ولا جلادة لي على إكمال كتاب واحد فلما لا ننطلق من هنا فكثيرات مثلي

لمْ نلقم هذه العادة مع حليب أمهاتنا ورغم ذلك نريد أن نقرأ .. ما الحل ؟

سأضع جدولاً يخدم البشر بالمقام الأول .. يخدم الأنسان لا الترف الإنساني

دعينا بالضرورات فقد أتخمنا وأسرفنا في الترف فكل حياتنا في هذا البلد ترف ترف ترف

وليته ترف حقيقي حتى .. شيء يشبه الترف لدلق الوقت والأيام .. ليس إلا

نعود إلى الجدول حددي هدفاً وبعدها يمكن بناء باقي المهام حتى يقبل بك الناس وتؤخذي بجدية حين التصويت

هل سيصوتون لي فعلا لعيون جدولي ؟!

لنرى .. سأهدف إلى البناء البشري ..عمران بشري سأضع منهجا فيما بعد لهذا المصطلح ،ليس الآن

الخطة التنفيذية .. كالتالي

لن أضع شعاراً تقليدياً لأستظرف به ..

كـ "يحوّل اللي ماله بريدة "

ما معنى يحوّل ؟ هل ستخدم هذه الـ (يحوّل) شيئا ما ؟!

ابداً لن أسخر من أهمية هذا الحيز الذي ستهبه لي الدولة لن أسمح لمشاغبين بتشتيتي .. لا أريد أصواتهم .. امم..أريد شعاراً محورياً ويستطاع تفعيله حتى يرفع الحياة داخلنا أريد شيئا يجذبني من هذا السرير للركض لتحقيق شيء أتحسسه أستطيع إلتقاط صورة بجانبه تخليد العمل لترثه أبنتي وربما تعود ليلى لنشكل فريقاً .. أو نذهب نحن إليها لرواج أفكارنا ليعلم القاصي والداني عن نجابتنا وأننا بنات المنطقة الواحدة فينا عن ألف رجل .. الهدف الأول ..سيكون للنساء لن أخدم يوما آدم فلو اقتصصنا قرنا للأمام نصيبنا منه ما استكفانا ،

سأخصص ناديا شاملاً في كل حي سكني تقام به أنشطة أدبية بالمقام الأول وإبداعية ورياضية كجوانب تحتوي جميع الرغبات .. سنبحث عن متطوعين رعاة ونفتتح صحيفة تحريرية لحرث وري وسقاية أرواح بنات المنطقة ولنستخرج المكنون، لابد أن يكون هناك رعاة سأورط والدي بالأمر ..لما لا

أعتقد أني سأنجح أن ركزت قليلاً ولم أنسى هدفي غداً !!

ربما أنسى .. لا أعلم لست بحال بناء أحد آخر بينما أنا هنا في شتات لا أستجمع به نفسي

لو بحت بأفكاري التي تسيدتها اليوم وترشحت لمناصب عليا وأنا بين أغطية السرير سأصنع من نفسي نكتة سهله، ما هذا النمو الذي فاق الصندوق وجال بما لست له ..

هل سيرضى والدي بأن يكون أسمي محط أخذ و رّد ؟

نفضت تاج السيادة المفسد لواقعي .. هذا التاج قد يطمعني بما لا يمكن بعده الرضا بالعيش تحت الوصاية، نهضت لأبحث عن شيء آكله .. أمي غائبة منذ أكثر من أسبوع الآن والبيت في إغمائة لم نعتقد أن غيابها سيخلق هذا الفراغ وتغفو الحياة على حيطان المنزل وزواياه ..المطبخ ساكن وكأس الحليب النائم منذ ليلة البارحة مازال على طرف الطاولة .. البيت منطفئ وممل !

وردني أتصالات منها ومن هند .. جاوبت هند لأنتشل نفسي من تطفلها الذي لا يطاق فتخدش لي هذه العزلة وتهز لي هذا البرنامج إبان النضج طمئنتها وعلقت الطمث في صنارة العذر فغمز ليصبح غيابي مبرراً بشكل رسمي ومريح.

استيقظت في هذا الصباح بلا تاج دخلت تحت الماء البارد جفل جسدي للحظة، تسلل الوخز اللاسع منذ قليل إلى مساماتي وهدأت .. كان لا بد كحكم جبري أن أزور أمي في بيت جدي، وجب أن أوّجب وأعرف ما الذي دهى أمي لتستطيع الفكاك من والدي وهجره كل هذا الوقت !! هناك شيء يحصل ..أو حصل ؟

وصلت هناك بينما كانت عقارب الساعة تتنافس في سباق شبه عادل نحو الثانية بعد الظهر ، المكان هادئ جداً بل هو مسترخي تحت خدر بدا به جميلاً ذا ألفة لم أعهدها عمري كله منه ، وكأن روحه بُدّلت ؟!

غرفة جدتي في الطابق السفلي بالطبع مددت عنقي بإتجاهه وكان الباب مواربأ برقة خشيت أن دنوت منه أن أخدش غفوة أو قيلولة وذلك مالا أطيقه من أحد ويحرم علي فعله لأحد أيضا ..

وخصوصا هؤلاء الجّدات العتيقات فهم على طرف الشيء دائما ..

على وضوء دوما للزهد متهيئات لبسط أرواحهن بلا تردد .. ونحن طبعا نهمين بلا تردد ايضا !

قصدت المطبخ لصنع قهوتي في هذا الوقت المتدلي بصمت مغري للإستكنان والتمدد على ظهره بدلال فهزت الصدفة قلبها لتراضيني اليوم على هيئة الخادمة مبتهجة تشع عينيها بـ "شبيك لبيك أنا بين يديك" كمارد أثيوبي قلما يفرج عن أسنانه جهلا بكيفية صنع إبتسامة ؟! لا أعلم ..فتوجست خيفة مع تراجع لخطوتي كردة فعل لجسدي لا يد لي فيها والله .. سألتها بأدب مضاعف إن كانت تستطيع تجهيز القهوة حالما أبحث عن أمي ويؤذن العصر بجدتي حتمية إنقضاء غفوتها .. وكانت مشرقة نشطة لا أعلم من فرك لي مصباحاً اليوم .

بدأت أنزلق نحو تأثير الفضول وبدأ الحشد الفطري لقبائل التحري و حل شفرة التغيير الغامض هذا في تكوين صفوفه في رأسي، خرجت إلى صالة جانبية ذات حضن مخملي واسع لألقي بها نفسي في هذا الوقت الشاغر قلبت هاتفي قليلاً ..لم يكن هناك رسائل منه .. يأتي مارقاً .. ويرحل دهراً .. هذا الرجل فوق الحب يقتلني بكم الشبه بيننا !

كيف هذا يا الله ؟

يممت نحو ليلى هاتفتها لأشكرها على تعزيتها بطريقة لذيذة وكأني أشكرها على تهنئة .. ضحكت مني وعلمت أنها لم تكن تورد هذه التعزية أو تقترب حتى من توثيقها لو علمت أنها واحد من مليون قد تؤذيني ..لم يكن هذا الراحل يعنيني أو حتى يعرفني وأعرفه .. لم أكن أحبه.. نعم هذه هي .. لو كنا سنمارس الحقيقة لوهلة !

أغلقت منها ومازال الوقت مستلقياً بكسل إلى جانبي .. سماحة غائبة ..سألت عني مرة فقط وجاوبتها بأيقونة وردة حمراء .. لا بد أنها علمت أن تلك طاقتي لجوابها وذلك لحظوتها فغيرها لم ينل غير قراءة صامتة وكثيرة عليه ..أتصلت بها مرة أثنتين .. ولا رد .. ربما نائمة رغم أن هذا موعد استعدادها لعملها فبعد دقائق ستكون بالصالون تباشر زبائنها ..

طبعت إليها رسالة نصية : " واحشني القمر "

تناهى إلى سمعي صوت أمي قادما من أعلى الدرج دسست هاتفي في فم حقيبتي المنكفئة على وجهها ونهضت ناحية الممر المؤدي إليها .. إلى صوتها المختلف ما هذا الذي أعتراه .. بصوتها شيء دفق بي سعادة سرت بقلبي ولكن حملت حشد الجيوش داخلي على إستنفار حقيقي نحو ماذا هناك .. ماذا يحصل ؟

سلمت عليها وقبلتها وهي تصف عنوان المنزل لطرف آخر على الهاتف النقال المحشور بين كتفها وخدها المنخفض إليه ميلاً .بينما يديها منشغلتان بإعادة لف المنشفة على شعرها كانت ترتدي ثوباً من القطن الخمري اللون بخطوط طولية من نسيج مماثل ولكن بلون أفتح درجات ربما درجتين .. جميلة كما عهدتها إنما قريبة فقد واست من عنقها المائل لتثبيت الهاتف قبل قليل وتناولته بيدها ويدها الأخرى إلتفت حولي تحوطني لنمشي بمحاذاة تسيرني نحو غرفة جدتي !

هي أمي لكن لم نكن هكذا أبداً .. لم تكن هي هكذا أبداً

كنت تحت صدمة الدهشة .. القشعريرة .. الطفولة التي غمرني شعورها في هذه اللحظة التي لم أستطع النظر إلى عينيها وسؤالها ما بك يا أمي ؟

بعد دقائق وصل الموصوف له قبل قليل عنواننا .. إختفت الخادمة قليلا وعادت بطبقين من القصدير الملفوف بعناية مررتهم إلى أمي التي ألقت نظرة سريعة لهما لتنقدها مبلغاً تعود به للمنتظر خلف الباب خارجاً .

بعد إنضمام جدتي إلينا في الصالة حول القهوة .. و الحلويات التي وصلت قبل قليل هاتفت أمي هند لتنضم إلينا ايضا .. و تخبرها أن خالتي أم فهد والصغرى منهن سينضمان إلينا ، في قرارة نفسي قررت الهرب وكنت منشغلة بخلق حجة ثقيلة قادرة على تخليصي بسهولة من هذا التجمع .. ولكن بعد قليل ليس الآن

بعد الفنجان الثاني الذي أتى بعد أحاديث خفيفة من جدتي عن خالي و الخادمة التي فسدت حسب رأي جدتي و إنفلتت و إنفلت معها صوت التلفزيون الذي تشاهده في كل وقت لمنتصف الليل .. حتى سألت أمي التي انتهت للتو من تجفيف شعرها وهي بيننا عبر توصيلة كهربائية مدتها حتى مكانها .. كل ما أراه من أمي طبيعي لكن طبيعي لنا ليس لها فهي متصلبة ممنهجة لا تحيد عن طريقها لا تمارس هذا اللطف وهذه الألفة والبساطة أيعقل أن تكون كرهت فجأة كل أدوات الزينة التي تحبها أكثر منّا ومن أي احد سابقاً .. أضعف الإيمان حمرة الشفاه هل هناك خصومة مع تلك الأنثى المتصابية التي كانت متسلطة دوما نشعر بحرجها من طولنا الذي يتنامى سنة بعد سنة ويتنامى قلقها حول جملة تتحاشى أن تسمعها طوال سنين مطت بها ساقينا ونهضت بنا عن الأرض مسافات كـ " بناتك كبروا ما شاء الله "

فيكن ردها سريعاُ مقتضبا منهيا ذلك " طول بس ولا توّهم بسم الله عليهم " !

ومع ذلك خطوط وجهها و خاصة هذا الخط الممتد من ضفة عينها الخارجية منحها مسحة ملائكية تشعرك بفردوس آمن لا تقوى على مقاومة أمنية أن تختزن هذه الصورة كرصيد تتكئ عليه بيومك الأسود . حبة الخال التي تحط رحالها على حافة ذقنها توازي طرف شفاهها تماما ورغم ما تضفي على تقاسيمها من جاذبية تلف رأسك لتقرر كل أنثى أن تصنع مثلها عند طبيبة التجميل خاصتها وحبذا لو إستطاعت إلتقاط صورة لها لتكون طبق الأصل ..رغم كل هذا هي تخفيها دوما بدهانات تصحيح من دهانات الزينة التي تحترفها، لم تقتنع بآرائنا يوماً وها هي اليوم تطلق سراحها بعد سحقها زمنا !

أخيراً .. سألتها عن حالنا وإلى متى هذا النفض التي تعيشه للبيت ووالدي ؟!

هبّت ريحٌ من خوف للحظة واحدة داخلي لحظة وقعت عيني بعينيها ولم تكن تجرب أن تجهد لسانها عناء حرف تصنع به جوابا أو تتصنع ذلك تتبع بها قواعد المتوقع و المفروض .. أي جواب تبرر به أو يكن شرح لما و لمتى تهدئ به هذا الخوف الذي توافدت حشوده في عينّي تلك اللحظة الممدودة يده إليها فصدّت وتشاغلت بحديث عن بائعة الحلوى التي حادثتها اليوم وتفاصيل يراد بها إخراسي ليس إلا .

سطى على جسدي حرارة غمرتني وعلت بي حد الغضب .. حد الرعب ،ما الذي يخبئه القدر بعد لنا ما الذي ستتقيئين يا أمي بعد ؟ ماذا هناك ؟

نظرت إليها ولا أنوي طيّ بصري على خفي حُنين .. هل هذه مسرحية على والدي ..

هل عزّ عليك شيء وتلقنينه الهجرَ درساً .. أخبرينا ؟

أشعري لمرة بنا وأعلمينا بخططك كاحتراز تحفظين به قلوبنا من القلق ففينا ما يكفي ويزيد منه.

" خلاص تعودي على كذا " قالتها وهي ترتشف فنجانها براحة مستفزة و تحرض على التعارك بضراوة قد أنسى بها أنها أمي .. وليست أحداً استطيع التمادي معه بلفظ يُعّبر عن ما يضوج داخلي ليتلظى بكلمة تندلع به لأجد السلام بعد ذلك .. تلك طريقتي لم أواري يوماً كلمة أعيد بها متنمراً أمامي لحجمٍ يليق به ..لكنها أمي

دخلت هند .. و لم ينطلي عليها سلام جدتي و سؤالها المبالغ به لتحاول ردم فضاء الغرفة المشحون كنت أطرح اسئلة وهي بلا مبالاة تطلب مني الإعتياد .. على ماذا نعتاد ؟ متى تختتمين حضورك متى يكن حضورنا نحن يا أمي .. متى نكن محور يشغلكِ ؟ متى نتوقف عن حضور مسرحياتك ؟

هل سيبقى والدي لعبة ؟ هل ستبقين باربي ؟ نحن بنات باربي .. هند أمي تريدنا أن نعتاد ..

اسأليها على ماذا نعتاد ؟ ما الجديد .. ماذا ؟

بدأت تفيض عيناي كغيوم انتفخت و إمتلئت و عزّ عليهم التخلي عن حملهم، رغم الضباب لم أجمع جفناي ليجلياه لم أقرر البكاء اليوم .. قبضت جدتي على معصمي تهدئني ..

فكانت لمستها كجدار أنقض على هشاشتي وبكيت .. رغم أني قررت أن لا أبكي ! ألف لعنة على التمرينوألف ألف لعنة على سيادة أفكاري .. هل من تمرين أتسيد به على أفكار أمي ؟

على الآخرين لئلا أبكي حين أقرر ألا أبكي ؟ !

قررت أن تتحدث أن تهتك سر التغيير حينما بكيت .. تهدج صوتي ذا أثر لم أعلم أنه قد يؤثر لتبكي هي !

أمي تبكي ! لم تبكي على والدها لتبكي لبكائي ؟!

أم على ماذا ؟

بدأت جدتي تحوقل وتستغفر وتردد أن أمي طالت مدة بقائها عندها لتراعيها فقط وستكون الأمور بخير بإذن الله ، ولم يكن هناك من يستمع إليها .. هند تسأل أخيراً ..

تسأل أمي " ما الذي لا نعرفه ..ماذا هناك ..أبي بخير قبل قليل هاتفته .. ما الذي يحدث "

" لن أعود للبيت " تقول أمي ذلك واستطردت ونحن في دهشة ..دهشة موجعة و منعقفة على هيئة استفهام خزق أرواحنا ،أكملت أمي قصة غريبة عن أنها أدت دوراً انتهت صلاحيته بموت جدي .. الذي أجبر والدي عليها يوما حين أتى متقدما لطلب يد أختها "بنت السورية" محدداً طلبه بعناية لعلمه أن البكر هي أمي .. لم يرفض ولم يصمت عن رغبته التي باح بها ليلة زواجهم .. العريس ابن الأسرة عميدة المنطقة ومن أهم أعلامها ، أستخسر جدي هذا الزخم فكان كرجل حكيم لم يهتم بما سيكون بعد .. لزم عليه كما يرى تدبيسهما وسيتمرسان بعضهما .. أتاها جدي في منتصف فرحتها كأي عروس تجهز لترتحل لضفة السعادة المرتقبة .. حلم التتويج .. أخبرها أن العريس راغبا بأختها لأمور تعرفها عن الدلال والغنج ولو كان صيتاً لا يمت للحقيقة بصله فهو صيت ينطلي على الرجال ، شرخ قلبها تلك الليلة .. تجنى على كرامتها حينما أسّر إليها هذا السر من باب حاولي ربما تستطيعي إبهاره ..ربما وليس متأكداً هذا الحكيم الذي قتلها تلك الليلة .. وكانت ربما تغفر لو لما يأتي هذا العريس ليخبرها بجسارة أنها ليست المنشودة رغم أنه لم يعلم أنها جميلة ويحمد الله أن تخوفه زال وتنفس الصعداء بعد إحساس الورطة الذي عاش به أياما كانت دهراً .. قررت في تلك الليلة أن تنتقم ؟

مِن مَن ؟

هل نضحك ؟ هل كانت تشرح لنا أمي أنها ناضلت تحارب لتثبت لهذا الذي مات أنها قادرة على لف رأس هذا الرجل وأن أنوثتها لا تقل عن تلك .. الأخت .. العدو الذي صنعوه

" وما ذنب والدي " قلت

" لم يكن لوالدك عزيز .. القميص الأحمر فقط عزيزه "

نهضت بلا إستئذان .. بلا سائق ينتظرني لأهرب سريعاً .. لم أكن أريد سماع المزيد

كنت أحتاج بحر ليمون يسكب داخلي .. كان الغثيان فائضاً .. فارهاً !!

إنتظرت السيارة خارجاً .. ولم يلحق بي إلا جدتي تطمئنني أن أمي مرهقة وسيطيب الحال وتزين بإذن الله سألتها عن والدي هل زارها .. وعلمت أنه أتى مرتان واحده فيهما لم تستقبله والأخرى تجادلا لأنه سألها العودة للمنزل وربما علّق على برودها و أِشار إلى أن عمرها لا يناسب هذه التصرفات !

"هي قالت لك ذلك ؟" سألت جدتي لأتأكد لم أكن سأصدق بسهولة أن والدي قد يتكلم بهذه الصيغة مع أمي أبدا لم تكن هذي طريقتهم ..!

لتخبرني جدتي أنها حاضرة الموقف لم يُنقل إليها شيء لذلك هي وجدت تبرير غضب أمي .. حديثها وتفسيرها هذا خفف من حدة الإندلاع الذي أضرم قبل قليل ولكن زلقت في حيرة ، أبي لطالما كان ضعيفاً ليناً معها !!

وصل السائق .. لأدني من رأس جدتي أقبّله مستأذنة لأخرج .. دسّت في يدي مبلغاً ضخماً تمتص به هذا الغضب كعادتها فهذي طريقة تعبيرها للحب .. للإهتمام .. جميلة وبيضاء جدتي لأمي ولكن ضعيفة لا تشبه أمي لولوه أبدا ولأني دائما حييت وأنا أضعها في مقارنة مع حبيبتي أمي لولوة لطالما خسرت وكان ظلما مني أن أفعل .. هشّه نعم ولكن طيبة وتحابي الجميع وإن لم تكن ذا أثر فهي تسعى وتجتهد لتبذل بطريقتها .. حتى وإن كانت نقوداً لا تعيد رتق الحال و علاجه !

إتجهت لسماحة رغم أنها لم تجيب أتصالي أو تعاود إتصالي لها منذ ساعتين .

كانت سماحة في غرفة الإنتظار تقلب هاتفها بملل حينما وقعت عيناها علّي وأنا متجهه نحوها جفلت وقفزت ناحيتي .. بعد التحايا " جوالك بيدك ؟ " قلت

_ " سبحان الله كنت بدي أكتب لك ورفعت عيني لشوفك" قالت وكانت تكذب أحسست بذلك كيقين

_" هناك شيء؟ " قلت

أخفضت عيناها للأرض تمسحها لتنهض وتطلب مني اللحاق بها

ذهبنا لغرفة الإدارة .. كانت خالية طلبت مني أن أستريح على مقعد جانبي ممتد بطول الجدار المنزوي عن الباب المشروع الذي لا نستطيع إغلاقه حسب أوامر صاحبة المكان .. إختفت سماحه قليلا لتعود بيدها صندوق مستطيل من السعف المغزول يحمل ورداً قطفت من يوم ..إثنين ، لونها أبيض توسطها صندوق يظهر لي لأول وهله أنه مغلق على هدية .. ذهب ربما .. ساعة ، لا أعلم ولا أعلم ما القادم ؟

عاصفة .. أشعر بذلك فوجه سماحة جديد لم أعهده ولم يسبق لي التعرف عليه

جلست إلى جانبي و جرّت من جيب بنطال الجينز الخلفي شيئاً شعرت أن الصورة تمر ببطء من الممكن أن يفتك بي يخلق عقدة دم برأسي و يكن خلاصاً من صفعة سترتطم بي الآن .. علمت من هذا الحزن بعينيها أني سأخرج أخرى غير التي دخلت إلى هذا الصالون ، كان كرتاً قلبته بين أصابعها النحيلة قبل أن تضعه بيدي بلا هوية تزيح هذا الغموض .. حلكة هذا الموقف تزداد حدة ، كان كرتا عادياً بلون مبتذل يبدو أنه اختيار رجل، بالطبع بالأمر رجل " ما هذا " سألت

_ أتاني إتصال قبل أيام ، سأخبرك بلا تنقيح ولا تحسين يا صبا والدك يهاتفني رغم أني لم أجب إلا بعد أصرار منه الا يخبرني عن ماهيته حتى أجيبه صوتا وحين فعلت أخبرني بأسمه ،أنا آسفه ولكن كل ما أستطعت عمله أن اقفلت الهاتف، لم أزد حرفاً بعد أن علمت أنه والدك و بالأمس وصل هذا الورد والعقد للصالون وغرقت في حرجي أمام العاملات ، لم تكن المدام موجودة ولكن متأكدة أن الخبر طار إليها قبل أن أقرأ الكرت حتى !

كنت متخشبّة نازحه بنظراتي عنها ..

سماحة : " لا أعرف عنوان عمله لكنت رددت كل هذه الأشياء إليه .. وخفت أن علمتِ تلقي علي ذنبا لم أقترفه صدقيني أجهل كيف أستطاع الوصول لرقم هاتفي ..أردت محادثتك مرّات وكل مرة لا أعرف هل أقول و أتهم أنا بوزرٍ غيري .. وتهتز صورته بعينك .. أم لا أقول وأكره أن أقترب منكِ وأنا مثقلة بسرٍ كهذا " استطردت " لو علمت والدتك لن تتفهمني أبداً .. لن تدع صاحبتها تبقيني بالعمل، أنا في حيرة ..أنا متزوجه يا صبا تتذكرين ذلك لم أملك وأميل يوماً ولو للحظة لأفكار كهذه ،أنتِ تعلمين " على حواف الوجع والجرح المشحوذان مرّرنا والدي ذبحنا تعزيراً متى قررت يا أبي أن تحوم حول صديقاتي و تسقط من عيني تحت الشمس أمام العالمين كيف يمكن للستر أن يلملم هذه السقطة ويدفنها ، كيف يمكن لي أن لا أصدق سماحة، كيف لي أن لا أمدد يدي إلى يديها المخنوقتان وأحررهما من وطئك الذي أماتها أمامي فهي تبكي الثقة التي تحاول جهاداً أن تخبرني أنها لم تمسّها وتبكي كرامتها التي اضطرتها أن تبوح بخوفها على عملها .. أن تبكي حاجتك أمام صديقك الذي تخبره يوما بعد يوم أنك تصاحبه لشخصه .. لا لماله ونقوده .. أنك ترجو ألا تؤخذ تحت الأقدام من أجل ترفهم .. الذي قد يذهب أمانك .. لقمتك .. العفاف الذي تلهث ورائه ليأتون بكل عنجهية ويقايضون إنسانيتك .. مبادئك .. يتلاعبون على قدر هامشهم ليقلبوا مَتنك رأسا على عقب !

" لن يعرف أحد ، وسأتعثر بين العاملات لأتأكد من أن يرينني خارجة به .. سيعتقدن أنه لي ، لعلّي أنظف الفوضى التي سببّها والدي .. أنا آسفه " قلت ذلك بينما أغرز الكرت بقلب هذا الورد الفاجر ، لم أقوى على النظر إليها .. قبّلتها و طمئنتها بحملي الصندوق والخروج مسرعة.

خرجت مسحوقة .. وددت أن أصرخ به .. وددت أن أذهب لأمي لأقول لها لأول مرة أتعاطف معك، لأول مرة أشفق عليكِ .. لأول مرة أعلم ما بداخل خزانتك .

يا رحيم كن بجانب المغلقة خزائنهن على موتٍ يستترن بالحياة به يدنين عليهن أخمّرةٌ لئلا يرمين بالشماتة والتشّفي.. يخترن المسايرة على قطف هذا الموت ونزعه ، قد تقع ببعض حظٍ يحالفها فتحرق خزانتها وقد تواريها الأرض و سرّها للأبد .. الآن علمت أن والدي شهواني عرفت أمي الطريق إليه وسارت به ، علمت الآن سر زهده بوالدته ، سر زهد جدتي بالحديث عن طباعه ، كانت تعلم أن ضعفه خاص به لم يكن لوالدتي يد به .. بل قرأت التوجيهات وتعاملت بدقة مع المحتوى الذي أمامها فقط !!

دخلت المنزل متوجهه إلى غرفة نومه .. وضعت الصندوق على السرير بحثت عن قلم بحقيبتي ولم أجد بحثت بالخزانة الصغيرة جانب السرير وجدت واحداً .. أضفت تحت كلام الحب الرخيص الذي خطّه له البائع حتما .. وضعتُ خطاً مسحوبا وكتبت أسفله " صديقتي متزوجة ☺ "

لا بد أنه سرق رقم هاتفها مني .. لا أعلم متى ولكن هو من هاتفي بالتأكيد هذه الأقراص تجعلني أغط في النوم بلا إحساس بمن يدلف إلى غرفتي .. ويخرج متسحباً أو راقصاً حتى وهو يحمل سرقة ما !

سرعان ما شعرت أن غيمة نار تطفو أعلى معدتي زفرت بقوة جسدي أحتاجها وأمر بها خرجت أجوب الباحة الخارجية أضمن شهيقاً لم تعبث به الجدران والبشر.

بعد ساعة عدت للداخل كتبت رسالة نصية لسماحة " من زمان عن عنيزة مول، دعينا نحتسي قهوتنا هناك غداً " أتاني الرد في ثانيتها سريعاً " Ok"

طلبت بيتزا بأكبر حجم متوفر وهذا الحجم لن يستوعب مهما حاولت درء الخيبات التي تقيم ولائمها في صدري فحين لا تبدو الحياة بخير هذا الخيار الأول لمحاولة بائسة في الرقص وغز أصبعك الأوسط فقط في وجهها ! أو أن أشعر بـ "فهد" محاطا بي ليصلح سوئها ويفك عقدة حاجبيها عنوة ،بعدما التهمت البيتزا لم تنقضي حاجتي التي قصدتها من أجلها، مازالت الحياة مكفهرة و حقيرة معي.

دائما وعلى شكل حلم مثالي أرى رفوفاً مملؤة بك يمتلئ رفاً فأستعير آخراً من جارتي لأضع طوابيراً من جرّات الزجاج الدسمة لذة و ذكريات نصنعها كإرث يدفئنا حين نهرم معاً .. يغري أطفالنا للحياة ، ينفخ بهم السعادة فيرفعهم عن الأرض ينبت لهم أجنحة حين تتعثر بهم الخطى ، حين يفقدون النسق لنبضهم ،حين يوشكون على هزيمة و إنكسار يتسللون إلى رفوفنا هِبتنا إليهم .. لنا ، لا أريد أن ينهب العمر وأنا أملأها بالهراء !

لأن والدي هكذا كانت إلتفاتاتي بعدد العابرين لا أتبتل موحّدة ولا أؤمن بالطمأنينة حتى تكن غاية أتبهل ليل نهار من أجلها ، حتى أستطعت أن تريني الأشياء والأماكن ذاتها بطعم آخر ، بشعور يتسلل داخل تجاعيد روحي فيملؤها غفران لمن جعّدها وسوّاها .. أشعر أني زرت الجنة !

هل تعلم ذلك .. كنت معكَ فوق الرضا ، فوق الفرح بل وصل الأمر بي أن أخاف الهبوط منها فحين يحضر غير الألم نستعيذ شر الفرح ..

هل للفرح شرُ بكل العالم .. ! بل بكل القواميس واللغات؟

سأجازف لأضرب جذوري في قلبك كما هي جذورك في خاصتي ..

سأتشبث براحة يدك جنة روحي ومنتهاها .. ولأننا بشر لن أراهن على شيء

لكن لي وطرٌ فيك لم يرتوي ..

فيك قلبي يتنمر على كل قطعة أخرى فيّ ، يشي إليهم عند كل معركة تدق طبولها لأجلك أنه سينتصر ..

أنه غالب بك !

تناولت هاتفي .. بحثت عن رقمة الأول وفككت قيد حظره .. وشعرت بجاثي على صدري قفز بعيداً

طرت على بساط ريح إلى غرفتي في الطابق العلوي .. رفعت صوت الموسيقى .. العود تقاسيم الصبا التي عرّفني بها هو .. تمددت على سريري .. رفدت ظهري بدبدوب عملاق صديقي الصبور على أمزجتي كلها رافقني بها وتشّكل كيفما أردته دوماً .. دخلت إلى الرسائل النصية ثم إلى رسالة جديدة فتحت درج الأسماء و أخترته علمت أنها ساعة تهور من تزاحم أنفاسي ..موجة لا أعلم أين ستقذف بي ولكني امتطيتها

_ شعري أسود

_رأيته .. جميل

_لن أغير لونه

_أنتِ حُره

_لا .. أقصد سأغيره حينما أريد أنا

_"سمّي" حسبما ومتى شئتِ

_ لن أختار أسماء البنات فقط سنحدد كل مرة بالدور وكلاً يلتزم بدوره سواء ولد أو بنت ..موافق؟

_ " سمّي "

_لو تغزلت بإحداهن سأتغزل بأحدهم

_لن نفعل كلانا

_لم افعل يوماً .. أنتَ فعلت

_نحن في البدء لا أتذكر ما قبل ذلك

_البدء الأخير .. تذّكر هذا جيداً

_التائب النصوح لا ينسى

_لنرى .. !

إنتهت

قد تكون بداية لنهايات لا تفنى

في العاشرة من صباح 26/5/1437